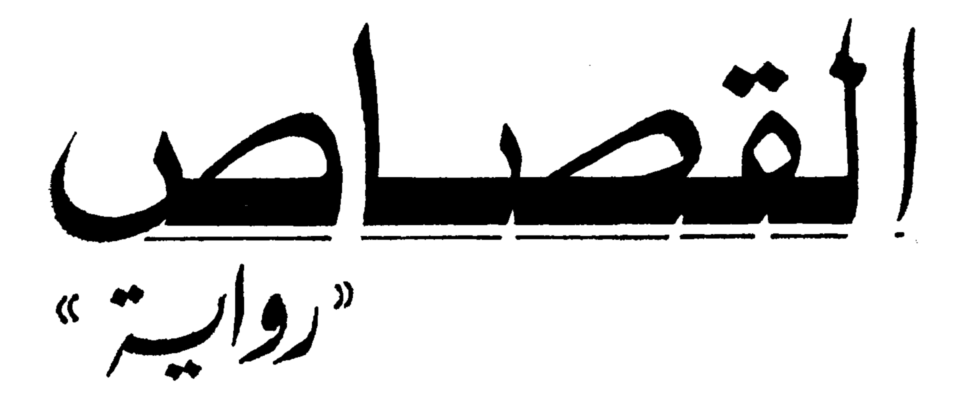
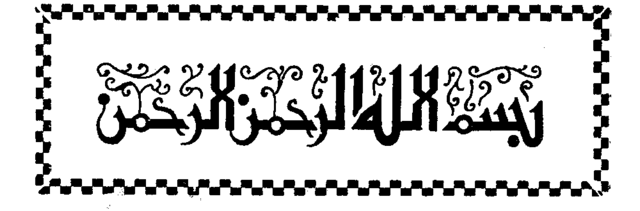

نادي الطائف الأدبي
عبدالله سعيد جمعان
القصاص
"رواية"

عبدالله سعيد جمعان



Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي



الطبعة الأولى

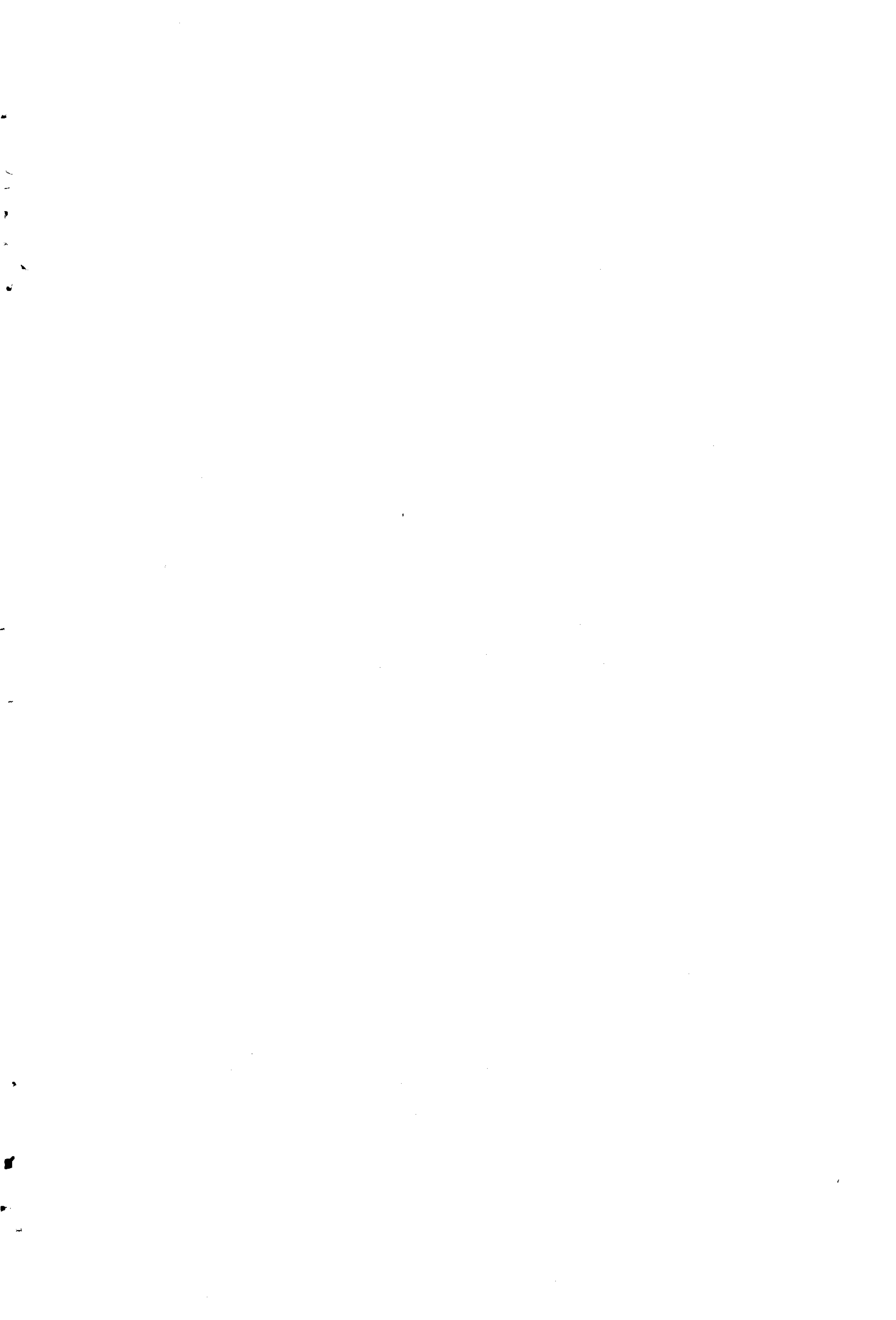
١٣٩٩

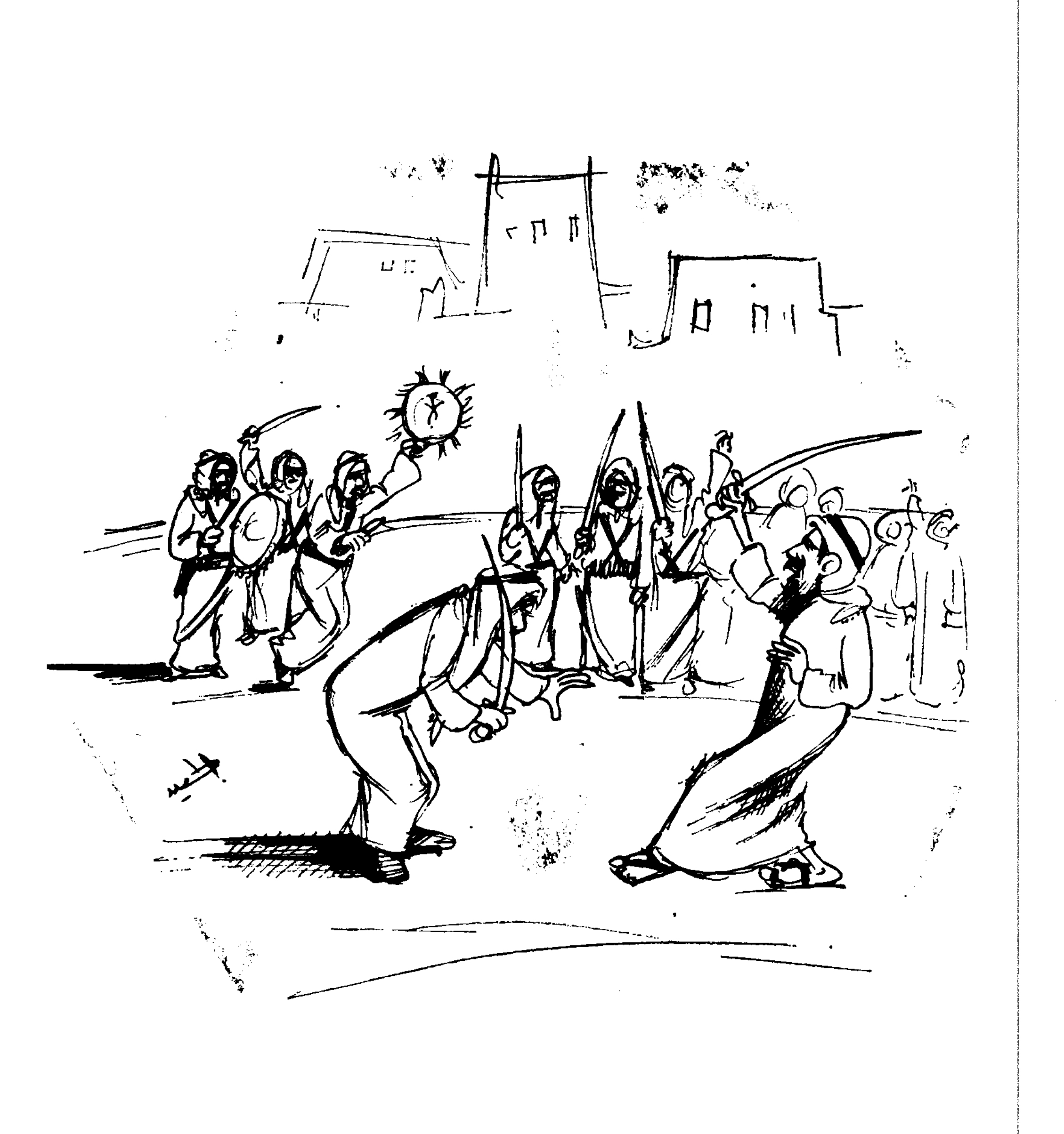
حقوق الطبع محفوظه

الغلاف للفنان : حماد الجعيد

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

الفصل الاول





القصـــــــــاص

الأنوار تغمر القاعة الفسيحة وترتطم حزم الضوء على الجدار فينعكس النور يجلى الظلام ويبهج النفس . . . وجمع من الحضور وسط القاعة وجوانبها. . .ومائة وعشرون متخرجاً شاباً . . . يتقدمون في طوابير لاستلام شهادة التخرج مرتدين زى التخرج المميز وأضواء كمرات التصوير الخاطفة تلمع بين الفينة والأخرى من جوانب القاعة . . .

وأخذتنى موجة من السعادة والفرحة . . . مائة وعشرون مهندساً سينضمون إلى ثروة بلادى. . . سوف يكونوا مفاتيح سعد للمستقبل فثروات الأمم لا تقاس بأرصدتها في البنوك . . . ولكن بقواها البشرية المتعلمة . . . وكلما زاد تعداد المتخرجين كل عام كلما زاد رصيد بلادى وملأت السعادة والفرحة كأسى حتى أترعته . . . والوزير يشد على يدى ويسلمنى شهادة التخرج . . . وأحسست بمسئوليتى وأهميتى لوطنى وأبناء بلادى . . .

وسرحت بخاطرى وتجولت في أنحاء مملكتى الحبيبة . . . وعرفت كم هذه الأمم هى في حاجة ماسة إلى أمثالى من الشباب المتعلم الطموح . . .

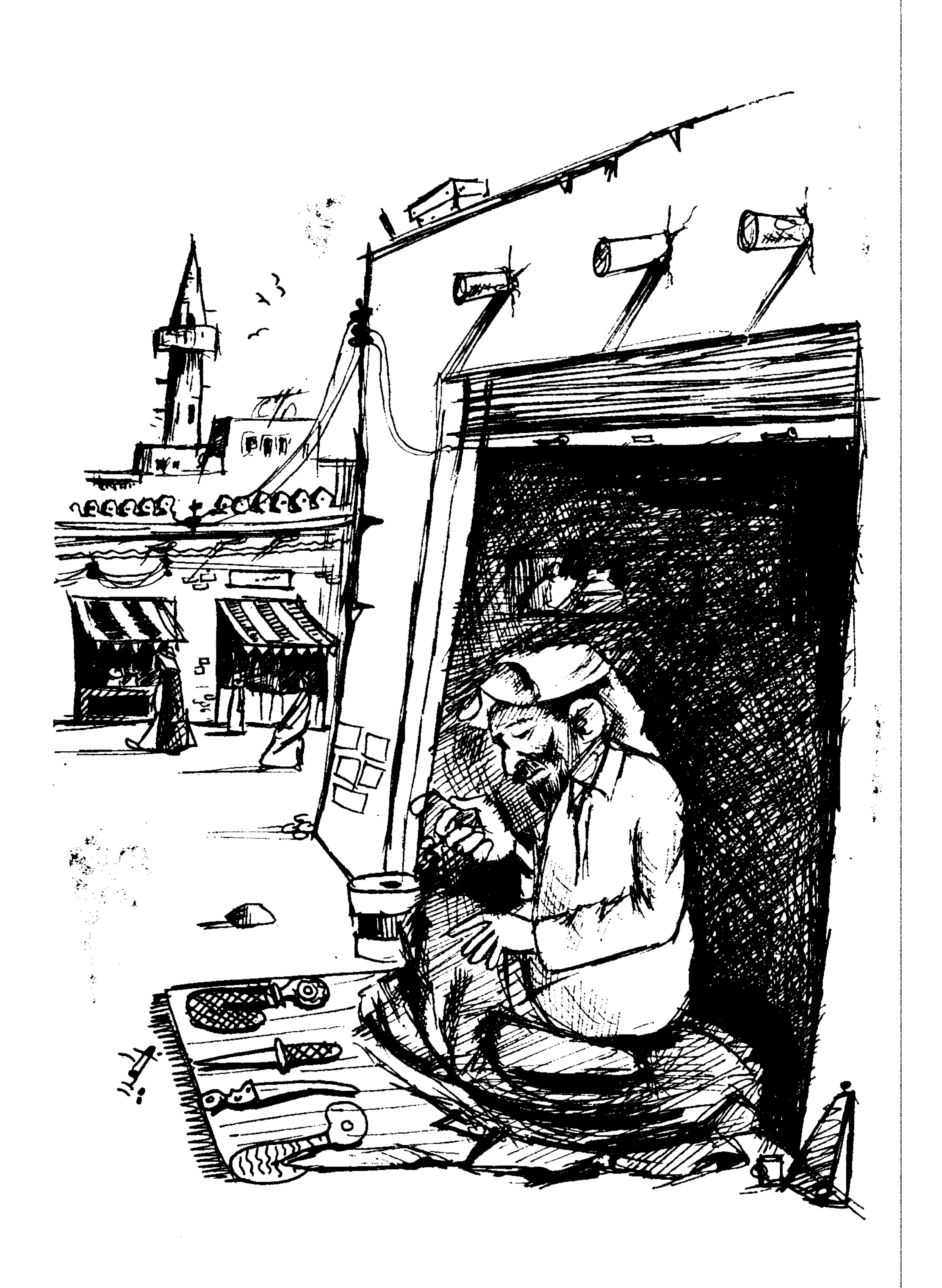
وأفقت على صوت أحد الزملاء مارقاً بجانبى هاتفاً بمرح . . . لا تنس حفلة الزفاف . . . أرجو أن تحضر برفقة الزملاء .

فأومأت برأسي موافقاً مؤكداً ولوحت له بيدى في سعادة ومرح وتذكرت أنه أحـــدنا تخرج معنا مهندساً زراعياً وسوف يتزوج إحدى فتيات بلادى بزهران حيث يقيم المرح هناك ، وابتسمت في سعادة . . . وكم تمنيت أن يتزوج الجميع لينجبوا لنا أبناء وقوى بشرية متعلمة تملأ أرجاء جزيرتي العربية . . .

وفي اليوم المحدد اجتمع بعض الزملاء في سيارة جيب أخذت تنهب بناء الأرض نهباً على طريق معبد تكثر فيه المنعطفات والكبارى وتخطينا غزائل وهى مجموعة صغيرة من المقاهى أخذت اسمها من الآبار هناك . . .

ومرقت بنا السيارة على كوبرى طويل يتخطى وادى تربة وهو واد كبير به مجموعة من برك المياه العميقة تسبح فيها بعض الأسماك المتوسطة الحجم . . . وصعدنا شمرخ وهو جبل شاهق الإرتفاع ومنه دخلنا بلاد زهران ، وعندما أقبلنا على قرية فضة وهى القرية المقام بها الفرح ، هز مشاعرنا وأطرب أفئدتنا . . . رجال القرية وقد خرجوا يستقبلوننا بالأهازيج الحلوة وحول خصورهم أحزمة الرصاص وبأيديهم بنادقهم . . . وتسابقوا فرحين يرقصون العرضة على وقع الدفوف ونقر الزير .

كانت الشمس قبل الغروب ترسل أشعتها على سنابل القمح الذهبية وأنســـام الشمال تهب عليها لينة فتنحنى ذوائبها وتهتز كأنما الريح تهدهدها فلا ترى العين إلا صفحة نهر من ذهب على مدى البصر وكأنما موج خفى ترى أثره في هذه الإنحناءات الخفيفة المتناسقة .



ويسرح النظر بتأمل مفاتن الريف ويبارك جهد الإنسان بين أحضان أمه الأرض ... أم الخير والبركة ، فهذه أكوام الحصاد تملأ الأجران في طرف الحقول وترتفع أكواماً وتلالا من الذهب وهؤلاء الفلاحون بين الحقول ... منهم الحاصد والزارع والجاني للثمار وقد أثقلت أغصان الشجر من لوز وخوخ ورمان .

وهذه كروم العنب خضراء زاهية اختبأت بين أوراقها الطرية عناقيد العنب بحباتها الشهية البديعة ، وعلى أطراف الحقول تعبق العطرة وشذى الورد والزهر ... ترفرف في أجوائها جوقات من العصافير تعزف لحنها القديم .

وفي طرف من البيوت سرحت بعض دجاجات سمان تبحث في الأرض عن قوتها وعلى رأسها ديك يصيح بين الفينة والأخرى وقد تباهى بتاجه الأحمر القاني وريشه الزاهي المتعدد الألوان ، ويطرق السمع خوار البقر قرب البئر وثغاء الخراف من بعيد ترعى سفوح الجبال الخضراء .

وسعدنا ونحن نسرح أنظارنا نستجلي كل تلك المفاتن . . . وأشرفنا على ساحة القرية الواسعة وقدانتثر الصبية في أرجائها يلعبون ويتجادلون وقد بدت عليهم السعادة رغم مظاهر الفاقه البادية على البعض منهم. . . وطرق القرية ضيقة ومتعرجة ... ماعدا الطريق الرئيسى المؤدى إلى المدرسة وقد اصطفت على جانبيه بعض الأشجار المثمرة الوريقة وحوله تناثرت بعض الحقول وآبار الماء .

وقد اشتهرت القرية بلوزها الفاخر .. وغلاتها الوفيرة واتصاف أهلها بالسخاء وكرم الضيافة وسماحة الأخلاق متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم الموروثة .

وهناك أعد لنا في طرف البستان وتحت شجرة لوز عتيقة وارفة الظلال بعض الفاكهة (وتباسى) الرز واللحم وصحاف اللبن الرائب وخبز « المحرفة » الشهى اللذيذ ، فتحلقنا حولها وأصبنا منها حتى امتلأنا ودب في أجسامنا خمـول الشبع .. وهبت على وجوهنا أنسام الظل الوريف وطراوة الجـو .. فأضطجعنا على الوسائد .. وأخذنا نتحدث في شئون كثيرة ونرشف القهوة المبهرة بالهيل الزكى .

والتفت أسأل زميلا لى عن سبب تسمية هذه القرية « فضة » هل لأنهم وجدوا بها هذا المعدن الثمين ؟
فأجابنى مبتسما ...

... لا ... ان هؤلاء القوم هم المعدن الأصيل ، أما الاسم فهو لفتاة من أهل القرية لها قصة طويلة ممتعة .

... إذا لم يكن لديك مانعاً ... أرجو أن تقص على طرفاً منها .
قال محدثي وقد أصلح من جلسته :

هى فتاة خمرية اللون جميلة حلوة حلاوة رمان بطحان ناعمة نعومة خوخ غامد متناسقة التقاطيع في أنفها شمم وشموخ وفي نفسها عزة الأباء ، في خدها شامة مثل كسرة حبة البن ، وصوتها مرافيء أحـلام ينساب كهمس السواقي في ليالى الخريف ، وعودها به عطش النخيل وقد تسلح للظمأ الطويل ، وشفتيها كزهرة من غابة رغدان تورق حولها الأغصـان وترويها الجداول المثلجة طبيعياً وعينيها بحيرة صافية يقوم حولها كثير من الزنوج مشرعى الرماح .

التحقت منذ صغرها بمدارس البنات ببلاد زهران ونالت الإبتدائية ومن ثم هاجرت برفقة والدها إلى الطائف والتحقت بمعهد إعداد المعلمات وكانت تنتظر بفارغ الصبر أيام الأجازات لتهرب إلى زهران ، حيث توجد هناك عمتها وقريتهم الصغيرة التى ترقد في أحضان الطبيعة والجبال العالية الخضراء .

لقد كانت تجد في الريف مالا تجده في المدينة . . الطبيعة حلوة وجميلة وســاحرة والناس على سجيهم . . لا يسرفون في النفاق والرياء كما يسرف أهل المدن ، ولا يبالغون في التزين والتجميل كما يبالغ أبناء المدينة ذلك لأنهم أقرب الى الطبيعة التى حبتهم بالجانب الأكبر من جمالها وسحرها وهدوئها .

وقد كانت « فضة » كالطبيعة التى تهتم بها وتتدله في حبها . . كل مافيها يبعث على الحب والإعجاب . . إذا تبسمت كانت أشبه بالشمس في لحظات أشراقها . . وإذا خطت كانت كالغزال رشاقة وخفة ، وكبرت وتخرجت واشتغلت بالتدريس ، تعين والدها الكهل الذى يكسب قوته من دكان صغير بالقرب من الحراج يبيع الزل والخناجر الفضية . . وكان لها الأب والأم والأخ وكل شيء منذ أن أطلت بعينها على الحياة ، فقد توفت والدتها بعد ولادتها بعام . وتركتها له يرعاها ويحنو عليها . . حتى إذا ما كبرت أدخلها المدرسة وعلمها . . وهاهى اليوم فتاة واعية كلها أنوثة ورقة تغسل ملابسه وتدير شئون البيت وتعد له الطعام . . وتذهب إلى المدرسة تعلم البنات وتعد أجيالا قادمة .

سارت بها الحياة فترة من الزمن . . تقلق لو تأخر قليلا في دكانه وتهلع لو ألمت به وعكة . . وتغذق عليه من حنانها وحبها وخوفها الشيء الكثير . . هو كما تراه وتحسه كل شيء لها في الحياة لم تعرف الحنان إلا بكنفه ولم تفتقد عطف الأم بجانبه . . فأصبح نجمها المضيء المتوهج دوماً في حياتها ونفسها . . ربيت على الدلال وحضنت السعادة وعشقت عيناها جمال الطبيعة في بلادها فصفت نفسها بشفافية موطنها . . زادها العلم نوراً في الحياة . . وبرغم وجودها في مدينة كبيرة كالطائف إلا أنها كانت تميل إلى الوحدة . على أن حياتها لم تخل من الصداقات والزيارات مع زميلاتها من مدرسات وجيران .

خرجت بنتيجة من تلك الصداقات وعرفت انما هى نوع من النفاق الإجتماعى في المدينة . . والزيارات المتبادلة لم تكن في الواقع إلا هرباً من المنزل ومن الملل ونوع من العرض الشيق للفساتين وأحدث التسريحات . .

فزادت ضيقاً بالمدينة وخاصة وأنها تشعر بنفسها مقيدة داخل المنزل بعكس ماربيت عليه هناك في قريتها ، حيث تشارك المرأة الرجل في كل أعماله ، تنزل إلى الحقل وتسوق البقر وترعى الضأن في الوديان ، وتنتقل حيث تشاء دون خوف . . ودون أن يطرق سمعها كلام جارح أو بذيء كما هو الحال في المدينة . .

وكثيراً ما أفضت لوالدها بما في نفسها عندما يجتمعان في الأمسيات فتجد مافي نفسه هو ما في نفسها ، ولكنه يبرر وجود هم في الطائف بقوله . . إن الحياة في قريتنا صعبة بالنسبة لرجل مثلى كهل ولفتاة مثلك

متعلمة ومتحضرة . . وأنا يا ابنتى لا أحب لك حياة المشقة والتعب .

وتدخل معه في جدال عنيف ، عبثاً تقنعه بالانتقال إلى قريتهم وغالباً ماكان ينتهى الجدال بقوله . . حسنا في أقرب وقت سوف أصفى الدكان ونرحل إلى قريتنا . . فلا تشغلى بالك بهذا الأمر .

وأصبحت حياة المدينة بالنسبة لها مجرد تقويم سنوى كل أربع وعشرين ساعة تنزع ورقة وكل سبع ورقات تعنى مرور أسبوع ، وزوال ثلاثين ورقة معناه الإنتقال من شهر قديم إلى شهر جديد .

ظلت الحياة هكذا في المدينة بالنسبة لها . . وزاد شوقها وحنينها إلى قريتها . . ولذلك عندما تقدم أحد وجهاء قريتها طالباً يدها لم تتردد في الموافقة على طلبه . . ولم تفكر في الفارق الكبير بين سنه وسنها ولم تسأل نفسها فيما إذا كانت تحبه أم لا . . فهى لم تعرف هذا النوع من الألفة الذى يسمونه الحب . . لقد كان كل همها أن تعيش في قريتها بين أحضان الريف الذى ربيت فيه . .

والشرط الوحيد الذى أصرت عليه هو الإستمرار في عملها كمدرسة وكان لها ما أرادت ، وانتقلت إلى المدرسة الوحيدة التى بقريتهم . . وهناك أقيمت الأفراح والعرضات ورقص الشباب والشابات من أبناء وبنات قريتها ، وتبارى الشعراء وسهر القوم حتى الصباح .

وكانت سعيدة لأنها زفت كما تزف البنات في قريتهم من أقرانها ، ولأنها سوف تعيش هنا في قريتها التى تعشقها وتدرس بناتها . . لذلك حتى بعد الزواج لم تزر الطائف إلا مرات قليلة لكى تشترى لنفسها بعض الملابس والأغراض الأخرى التى لا توجد بقريتهم ،

وبعد مضي فترة من زواجها . . وعت على الحقيقة المرة . . وعرفت أنها اقترنت برجل في سن والدها يرسف في ظلال الجهل وتنهشه أمراض الشيخوخة والعجز . . فتشرق بدموعها وتبتلع غصصها وتقاسي من حزنها وألمها في صمت . . وتقوم بنفس رضية على تمريض زوجها والعناية به . . خاصة وأنه يعاملها برقة ومودة .

ولاحظت عمتها ما أعترى أبنة أخيها من شحوب وكآبة دفينة وتدهور في صحتها . . والحالة النفسية التى كانت تسيطر عليها . بخلاف ما عهدته فيها من تفتح على الحياة كالأزهار البرية التى تزهر في واديهم . . وأصبحت تراها كزهرة عبثت بها الرياح ، وشدة الهجير فأذبلتها على أغصانها . . وكثيرا ما ساءلتها عن السبب وما يقلقها ويحزنها فلا تحظى منها بجواب . . حتى كان ذات صباح أتتها مهرولة وبعد الحاح وتودد وحنان صادق . . باحت لها بهمومها وما يعتلج في صدرها من آلام وحزن . . بل وقالت لها والدموع في عينها أنها تجادلت مع زوجها الكهل . . وبكت كثيرا . . فقد أصر على أن تترك التدريس وتمكث في البيت . . ولما سألته لماذا ؟ أوضح لها بأنه يخاف عليها . . بل . . أكتشفت أنه يغار عليها فهو يعلم أنه لا يتناسب معها لا في السن ولا في العلم وأنها شابة جميلة فاتنة . . ورجت عمتها في حزن بأن تفعل شيئا أى شيء يحول دون استمرارها في عملها المقدس . . فهى أصبحت تحب بنات قريتها اللاتي تدرسن وأصبحن لها السلوى . . وفي قلبها الحب الكبير .

وربتت العمة الطيبة على كتفها ومسحت دموعها وأبتسمت لها ووعدتها بأن تتفاهم معه ، ولكن القدر أختصر عليهم الطريق ففى صباح اليوم الباكر صحى جميع ممن بالدار على صراخ « فضة » . . وأسرعوا اليها فوجدوا أن زوجها قد فارق الحياة . .

وبكته فضة بكل مشاعرها وأحساساتها، بكته بكل الحب الذى تشعر به داخل قلبها ، بكت فيه الانسان ، وبكته وفاء للعشرة والمودة ولم تمضى أسابيع كثيرة حتى توفي والدها الطيب وبكت « فضة » مرة أخرى بحرقة وألم وشعرت بضياع ووحدة ورهبة من الحياة . . حتى أعز الناس عندها تركها ورحل .

وتذكرت كل حنانه وكل حبه وأعتصرها الحزن وهجرت الناس وانطوت على نفسها وأحزانها تجتر منها ذكريات طفولة سعيدة وحنان أب . . ، وكان سلوتها وعزائها تلميذاتها بالمدرسة هن وحدهن سلوتها وحبها وحنانها ، وتعلقن بها وبادلنها الحب والمودة ، تقلق لو ألمت بواحدة وعكة وتظل تسأل عنها وتعودها حتى تشفى وتشترى الثياب واللوازم للفقراء منهم ، وتصرف من مرتبها عليهم برضى وسعادة وسماحة نفس . . وأحترمها الجميع وقدسوا فيها مهنتها . . وغدت ملكة القرية تعتلى عرش قلوبهم بالحب والحنان .

وتقدم لها شاب مثقف يعمل مدرسا بمدرسة الأولاد الأبتدائية بالقرية . . ولم تجد « فضة » من تستشيرها غير عمتها الحنونة فهى الشيء الوحيد الباقي لها من أثر والدها وريحه الطيبة . . وقالت لها العمة . . أحمد شاب مؤدب وكل القرية يحبونه ويتمنونه لبناتهم ، ولكن لا تنسى أبن عمتك « محمد » ألا ترين أن أخبره اذا كان يرغب الزواج منك أم لا ؟ . .

ورف في خيالها طيف الصبا ، ولمع برق الذكريات في أفق بعيد . . « محمد أبن عمتها ، وسرحت بخيالها . . لقد وصلت منه عدة رسائل من أمريكا عندما كان مبتعثا من قبل سلاح الطيران . . وكانت تقرؤها على عمتها وترد على تلك الرسائل باسم عمتها . .

وعندما تخرج طيارا وحضر الى قريتهم . . بهرتها صورته وزيه العسكرى وقامته المديدة ونظراته الحادة الثابتة ومشيته المعتزة . . يومها لا تنكر كيف أن قلبها رقص فرحا عندما ذكرها بأيام طفولتها ولعبهما حول الحقول وركوب البقر والسعى خلف أعشاش الطيور . .

وخلال اليومين التى مكثها معهم بالقرية وهى الأجازة التى منحها له قائد القاعدة الجوية لرؤية ذويه والعودة . . لاحظت « فضة » أنه غير مهتم بها ويعاملها وكأنها هى طفلة الأمس ، ولم يرى فيها الأنثى الناضجة والزهرة المتفتحة . . ربما للتقاليد والعادات الصارمة . التى أحلتها في قلبه فهو لا يرى فيها غير أخت له ، ويجب أن يعاملها بتلك الطريقة ويومها لم تهتم لذلك بل ربما سعدت لشعورها بأن لها أخ مثل « محمد » . .

وعندما أنتهت أجازته الخاطفة تلك ، عاد الى قيادته في قاعدة الدمام ولم يزرهم بعدها عدا بعض الرسائل المتفرقة وفي المناسبات .

وأفاقت من تلك الذكريات على صوت عمتها مكررة سؤالها . .

ماذا بك . . أراك قد سرحت بعيدا . . هل نخبر « محمد أم لا ؟

قالت « فضة » بلهفة وسرعة . .

نعم لازم نخبره ونشوف أيه رأيه . .

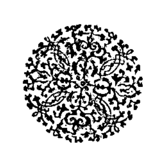
وجلست تكتب له رسالة على لسان عمتها ، حاولت أن تلمح له برغبتها فيه . . ومكثت تنتظر عودة الرد . . بلهفة وشوق . . ولكن « محمد » رد بلباقة وتمنى لها كل سعادة قرب « أحمد » . .

وكأنما آلمها ذلك قليلا ، الا أنها لم تكن تشعر بعاطفة قوية تجاهه تجعلها تحزن لعدم رغبته بها . . مما ساعدها لأخذ قرارها والموافقة على الزواج من « أحمد » . .

وتزف الى « احمد » وقد رأت فيه بارقة الأمل والسعادة في ليل أحزانها وتفتحت عواطفها له تدريجيا ولم تعد ترى الا النواحى الطيبة فيه ولم تكن عواطفها نحوه حبا ملتهبا عميقا متكاملا .

ولكنها كانت عاطفة ومشاعر صادقة قوية . . يدعمها التقدير والاحترام والمودة المتبادلة بينهما . .

وبعد عام جاء مولد طارق وأستطاع طارق أن يملأ بوجوده كل الثغرات في حياتها . . فمنذ طفولته المبكرة . . كان متميزا شديد الذكاء رائعا . . وتعلقت به أشد التعلق ودللته التدليل كله . . ولكن ذلك لم ينسها أصول التربية . . كانت تريد له أن يصبح ذا شخصية واعية متميزة لها وجودها وكيانها وشأنها في المستقبل .



الفصل الثانى

قال لها عندى لك مفاجأة . .

قالت بلهفة وفرحة . .

. . البقرة ولدت . . . ؟

صاح ضاحكا وهو يمسك بكلتا يديها .

. . بما أنك لا تعرفين غير مشاكل الزراعة والماء والبقر والفلاحين مفاجآتي . . أننا سوف نسافر الآن إلى جدة ، حيث البحر . . واللهو ورؤية الأشياء والمناظر الجديدة التى لم تشاهدينها من قبل ، وأردف وهو يجلسها بجانبه . . أتعرفين جدة ؟ هل رأيتى البحر ؟ هل شاهدتي الملاهى ؟ هزت رأسها نفيا وهى منبهرة بما يقول ، تائهة التفكير . .

وخطفها من يدها يقودها بفرحة الى العربة . . فصاحت به . . الى أين ؟

قال الى السيارة . . الى جدة . . عروس البحر .

قالت مرتبكة . .

. . عباتي . . ألبس عباتي . . وأجيك .

وأنطلقا صوب مدينة الطائف في طريقهم الى جدة .. كانا فرحين .. المعالم تختفى خلفهم ، الشجر والجبال ، ليستقبلا معالم جديدة . .

منذ زمن بعيد لم تشعر « فضة » بشعور السعادة والغبطة الداخلية كما تشعر بها الآن . . السيارة تتهادى بها عبر الطريق الذى يبدو في البعد كثعبان أسود هائل يتلوى في أحضان الجبال العديدة المتلاصقة المكتسبة سفوحها وقممها بأشجار العرعر والأشجار الحرجية الأخرى بينما أزدانت جوانب الطريق بأنواع الأزاهير الربيعية . . فهنا مجموعة من زهور « الضرم » البنفسجية وهناك أخرى من زهور العرار الصفراء . . ونبات « الحميض » زهرته الحمراء تتراءى في حياء من بين الحجارة الصغيرة المتناثرة على السفوح . . بينما تظهر ندرة بين الحين والآخر زهرة الخزاما بمنظرها الخلاب الجميل .

وتنهدت « فضة » بارتياح تام . . ولفتت نظرها الى الجهة الأخرى من الطريق هناك على السفوح مجموعة من الخراف ترعى في اطمئنان ودعة وقد أحنت رؤسها ترعى الأعشاب الخضراء الطرية .

بينما كانت السيارة تواصل انسيابها خلال الطريق. . كانت الأشجار والجبال القريبة تعدو الى الخلف . . فيما تنجلى التلال والمرتفعات عن مشاهد جديدة رائعة .

وفي أحضان الجبال .. تستلقى المزارع تماوج فيها الخضرة وصفرة الزهر . . وأشجار اللوز الكثيرة المتناثرة هنا وهناك بزيها الأبيض المتفتح كالآمال في ربيع الحياة . . .

ويلتصق النظر بالبيوت البسيطة الحالمة للغافية فوق كتوف الجبال المطلة على الحقول والمزارع . . والفلاحون يعصبون غترهم على رؤسهم يحرثون الأرض أو يجنون الثمار . . وهنا وهناك فلاحة تسوق البقر على البئر أو تحمل أعواد الذرة الى زريبة البقر . . أو

هى تجمع الحطب من الأودية القريبة وتحملها الى المنزل لتعد الطعام والقهوة وخبز « المجرفة » ، أو تحمل قربة الماء على ظهرها وتمشى بها صعودا من بطن الوادى الى البيت في سفح الجبل .

وتنهدت « فضة » وحركت لسانها بين أسنانها وبلعت ريقها وهى تتذكر مذاق الماء في القرية مختلطا بالدباغ بارداً كالثلج .

أمتزج صوت محرك السيارة بصوت تلامس النسيم بها فتكون عنهما صوت كالحفيف . . بينما عبرت السيارة أنحناء دائريا حول أحد التلال الصغيرة ثم أنفرجت الطريق باستقامة طويلة نسبيا مع انحدار قليل . . أوحيا لأحمد أن يزيد في سرعتها . . فتدفقت الى الداخل موجات من الهواء المنعش الطرى يبعث النشوة والاسترخاء . . وعندما وصلا مدينة الطائف أسدلت « فضة » شيلتها على وجهها . . وتخطو معارض السيارات وعبر أذنيها صوت الدلالين من خلال مكبرات الصوت . . في صخب وفوضى . . وسار أحمد قليلا في الشارع الممهد الفسيح ثم أوقف السيارة بجانب الرصيف وترجل منها قائلا :

. . سوف أشترى لبنا رائبا من دكان « عبد الحفيظ » . . وبعض الفاكهة وأحضر . . .

فأومأت برأسها موافقة والابتسامة تملأ جوانحها وترسم ملامحها . . وبعد برهة عاد بالأشياء ووضعها عند قدميها . . وأدار محرك السيارة فأنطلقت بهما وأجتازت قلب المدينة وقصر الضيافة وبدأت معالم الطائف تختفى خلفهم وتطل عليهم معالم أخرى .

هى سعيدة فرحة . . وأحمد بجانبها خلف المقود تبدو عليه السعادة والحيوية ، أخذت ترمقه بنظراتها المعجبة بين الحين والآخر . . شاب من تربة بلادها . . متوقد الذكاء صافي الذهن كله حيوية . . وفي ملامحه حمية وشموخ وعزة . . ألبسه العلم رداء من نور ، فتوهج شعلة من نبوغ وإدراك وعطاء . .

وأغمضت عينيها في غبطة وسعادة وأسندت رأسها على وسادة الرأس المثبتة بأعلى ظهر المقعد ، وتاهت في أحلامها .

ودخلا جدة . . حاولت أن تخفى دهشتها وأنبهارها بكل ما تراه . أنها جولتها الأولى في مدينة كبيرة . . هى لا تعرف الا الطائف وحياة القرية .

أضواء الشوارع والنيون المتراقص على واجهات الحوانيت ، السلع المتعددة الأصناف والماركات . . والنساء الأوربيات المتبرجات يسرن على الرصيف وداخل الحوانيت والمطاعم . .

شيء جديد تراه لأول مرة . . وجذبها من يدها . . فقالت له والفرحة والانبهار يملأها .

. . الى أين ؟

قال وهو سعيد لانبهارها .

. . ألست جائعة ؟

فأبتسمت وأومأت برأسها ــ فقال :

. . اذاً الى مطعم الفروج المشوى . .

وقفت مكانها وشدت يدها من بين يديه ، وقالت : وكلها دهشة وأستغراب . . يا فضيحتى . . لا لا بلاش الله يخليك . . أدخل المطعم . . ؟ يا ويلى . . ؟

. . وجذبها من يدها مرة أخرى وهو يضحك .

. . مطعم الفروج المشوى . . فيه قسم خاص للعوائل . . وحدنا أنا وأنت . . تعالى .

ولم تجد الا الاذعان ، ونظرت إلى واجهة المطعم . . شلالات من المياه تنساب داخل اطار زجاجى شفاف . . وقرد صغير قابع داخل قفص . . يقفز ويحملق الى الداخلين والخارجين . . وهناك من يطعمه بعض اللوز ويداعبه ، فتصدر عنه نهنهات . .

هى ترى القرود في قريتها بين الحال حرة طليقة لا داخل أقفاص حبيسة . . وتبسمت للفارق . . وقربا من المدخل . . وصوت آلة التبريد يملأ أذنيها . .

وأنفرج الباب بغتة . . وبرز صبي في بزة رسمية غريبة . . الطربوش الأحمر والسديرية الحمراء المطرزة والبنطلون الأسود . . وأحنى رأسه في احترام وهو يوسع لهما الطريق مرحبا . . وواجهها سلم الى الطابق العلوى ، وألتفتت حولها . . شلالات من المياه ، وسمك صغير يسبح وطير غريب قابع في زاوية هناك وأضواء خافتة . . وتشبثت بيده بشدة ، وهمست في أذنه وهما يصعدان الى فوق . .

. . أنا خائفة ومضطربة . . وأشعر بأن كل شيء غريب حولى . . هلا رجعنا . . ؟

ولم يجب ، وتقدم يصعد الدرج ، وهى متشبثة بذراعه في عناد . .
المكان شبيه بالطابق السفلى عدا ان به زوايا واركان . . والطاولات والمقاعد الجلدية تكاد تكون محجوبة واحدة عن الأخرى . .

وجلسا في ركن هادىء . . الأنوار خافتة ، وخلفها شلال من المياه المنسابة خلف الزجاج وعلى جانبها الأيسر حوض صغير لأسماك ملونة مختلفة الأحجام والأشكال . . وصوت موسيقى هادئة ينبعث من حيث لا تدرى .

الجو حالم وهادىء . . ونظرت أمامها هناك في احدى الزوايا عائلة سعودية بعباءاتهم يتناولون الطعام . . وفي مكان آخر أشبه بصالة صغيرة أسترخى نفر من رواد المطعم يتناولون المرطبات . .

وأحضر النادل الطعام . . فقطع عليها نظراتها المتلصصة المستطلعة . وتناولا طعامهما في هدوء وصمت، وتبادلا البسمات . . وما أن فرغا . . حضر النادل ورفع الصحون من على الطاولة . . وقال في أدب . . سيدى ما نوع المرطبات التى ترغبون ؟

. . أحضر لنا سفن آب

وألتفت لها بعد أن أنصرف النادل . . أنه خير مهضم بعد هذه الوجبة . .

أومأت له برأسها باسمة . . بينما كان يأتيها صوت فيروز هادئا شجيا يتحدث عن القرية وجمال الطبيعة وجسر اللوزية . . فألتفتت الى أحمد قائلة :

. . ألاحظ هنا . . ان كل شيء مسجون . . القرد . . الطير . الغريد
شلالات المياه . . السمك . . وذلك بعكس ما في قريتنا . . القرود
طليقة في الجبال والطير يسبح في الفضاء والشلالات تنحدر من على
الجبال الى الأودية . . والسمك يسبح في بركها بحرية . . فقال أحمد
مضيفا

. . حتى الشجيرات الصغيرة والزهور أقتطفت ووضعت داخل
أصص زخرفية فأكملت ملاحظتها قائلة :

. . ان جـــاء ظني . . أنهم يتوقون الى الطبيعة . . فهم لا يـــرون هنا
في المدينة الا العمائر المسلحة التى تسد الأفق والأسفلت وأكوام الحديد
من عربات منوعة . . وهواء فاسد ملىء بالغازات . .

. . وأردفت مفتخرة نشوى . .

. . أما في قريتى هناك الجبال الخضر . . والحقول الزاهية والشلالات
الحقيقية والهواء النقى العليل . . والأفق الرائع . . حيث لا تصطدم
العين بأفق قريب . .

وأكمل أحمد قائلا . .

. لذا تلاحظين هنا . . أن اكثر الشباب يضع نظارات طبية على
عينيه . . لكثرة ما يصطدم النظر بالمسافات القريبة . .

فضحكت فضة وقالت بمرح . .

. . لا تكن متشائما أكثر من اللازم . . وأعتقد أن الأمر ليس بهذا
التضخم الذى قلناه . . فالمدينة لها رونقها وجمالها وحياتها ، كما للقرية

ميزاتها وروعتها . . وربما لو ناقشت حضريا في الأمر لذكر لك أشياء لا نعرفها .

. . هذا صحيح . . غير أنك تلاحظين هنا أنهم أرتاحوا . . فكل شيء تصنعه الآلة . .

فأكملت فضة بمرح . .

. . بكبسة زر يضاء النور . . وبلمسة مفتاح يسرى الدفء، بدلا من أعواد الحطب في الموقد . .

فيكمل أحمد

. . حتى المطر مكروه في المدينة . . برك مياه موحلة في الشوارع . . وكهرباء ومواصلات مقطوعة . . أنه يعطل حياتهم . . بينما في القرية شريان الحياة .

فقالت فضة :

. . أرتاحوا من أشياء . . وكرهوا أشياء أخرى .

. . أنهم كثيروا المشاكل ويعانون من ألف عقدة وعقدة . . فضلا عن الداء والمرض .

فقالت فضة والبسمة تعلو شفاهها . .

. . الطبيعة وحدها صيدلية الانسان . . وهى وحدها تصنع البشر . . في قريتى تسبح الطيور في هواء نقى ، وتشرب ماءاً عذب قراح . .
فقال لها مداعبا مستطلعا :

. . هل أفسر هذا الكلام على أنك غير منبهرة وسعيدة برحلتنا هذه ؟
فأسرعت فضة قائلة بصدق :

. . أبداً . . لم أقصد ذلك لكن هى ملاحظة عبرت عن خاطرى ، فرغبت في مناقشتك بها . . وأقسم لك أننى منبهرة وسعيدة . . فكل شيء أراه جديد عليّ رائع مدهش في خيالى . . فلا تفسد أنت متعتنا ورحلتنا .

وأبتسم أحمد . . وجذبها من يدها بفرح فقالت . . الى أين قال . . الى البحر . . وعلى الشاطىء وقعت عينا فضة على شيء عظيم من خلق الله . . هذا هو البحر برهبته وعمقه وأمواجه الصافية يمتد على مدا البصر وحتى الأفق البعيد . .

وضحكت في سرها وهى تتذكر قولهم في قريتها عندما تميل الشمس الى المغيب « طاحت الشمس في البحر » وأنتشلها من تأملها، وتذكرها رذاذ الماء يقذفها به أحمد . . فبلل شعرها ووجهها ، وتعالت ضحكاتها وصخبها .

. . أحمد كف عن ذلك لقد أغرقت ملابسى . .

. . أخلعى الفستان وأنزلى معى إلى البحر . .

وصاحت به :

. . أخلع الفستان ؟ أنت مخبول !

وصاح بها من بين الماء . .

. . ليس هنا أحد من الناس أنها بقعة نائية . . . .

فقالت وهى ترتد الى الوراء ممانعة :

. . لا . . لا . . لا يمكن أبداً . .

وهربت منه بعيدا على طرف الشاطىء . . فلحق بها وأغرقها حتى وسطها في الماء وأخذ يغرف من ماء البحر ويرش وجهها وشعرها فشرقت بالماء المالح . . عندها كف عن ذلك . .

ومالت الشمس إلى المغيب . . عندما انصرفا من هناك . . وهتفت به نشوى فرحة . . إلى أين ؟ . . إلى الملاهى . . الأضواء تتحرك تنطفىء وتلمع وأصوات مكبر الصوت ووسائل اللهو الصافية . . حاولت أن تخفى شعورها . . فهى لا تـــود أن تظهر أمام أحمد بصورة القروية الساذجة . . وشتان بينها وهى في فستانها الطويل مع نساء القرية ، أكثر اتزاناً وتعقلا وبينها الآن . . تركب المراجيح وتقضم السندويتس . . فتاة مكتملة الأنوثة ، مرحة ترتدى بلوزة وتنورة . .

أمسك بيدها وركبا العجلة الدائرية . . وارتفعت بهما إلى أعلا فشاهدا مدينة جدة بأنوارها المتلألأة البعيدة ، وصغر كل شيء لارتفاعهم .

ثم بدأ الهبوط فأحست بأن قلبها يسقط معها .. في تلك اللحظات يشتد ضغط أصابعه على أصابعها . . وهى كالقطة . . انكمشت بجواره وتمنت أن تصل الأرض سالمة .

وركبا معا السيارة الكهربائية . . وتصادما مع الآخرين وضحكت من أعماقها في حياء . . وركبا الطبق الطائر واعتلا بهما في ضجيج وصخب ، أحست برهبة وشيء من الخوف يشوبها ، فرح بمعرفة المجهول ولذة الترفيه .

وراح جزء من الليل عندما عادا إلى مكة ثم هم في طريق الطائف ضوء القمر يغمر الجبال والوهاد ويتسلل إليهم داخل العربة ، وصوت فيروز مرة أخرى من مسجل السيارة يقول حالماً . . نحن والقمر جيران . . الهدوء يغلف العربة ماعدا صوت إحتكاك الإطارات بالأسفلت .

ولم تـــدر إلا وهى تبحث عن يده على عجلة القيادة وتأخذها إليها في حنان وتنكمش بجواره ، وتوسد رأسها صدره العريض . . واستمعت إلى ضربات قلبه مختلطة بصوت فيروز ، وخيل إليها أن هناك جوقة من العصافير تسبح فوق العربة مغردة . . ، وشعرت وكأنما هى تجرى في الحقول الخضراء . . والطيور تحلق فوقها ، وسنابل القمح تتأود حولها ، وزهور برية كثيرة تحوط بها وتنهدت من أعماقها في سعادة .

كان الليل قد انتصف عندما وصلا إلى مدينة الطائف ، الطرقات خالية من العربات والسابلة عدا نفر من رجال الأمن يجوبون الشوارع ، وكان التعب والإرهاق بادياً عليها بعد يوم حافل ، فالتفتت « فضة » إلى أحمد مقترحة :

. . ما رأيك لو ننام عند أحد أقاربنا هنا في الطائف وفي الصباح الباكر نواصل سفرنا إلى قريتنا ؟

قال أحمد : وهو يتثاءب . .

. . . إن الليل قد ذهب معظمه . . والناس قد نامت . . فليس من اللائق أن نطرق بابهم في مثل هذه الساعة من الليل . .

ردت وهى تبدى التعب والإرهاق . .

. . ليس في ذلك شيء . . خاصة ونحن في حاجة إلى المأوى والنوم وأنت تعب مرهق . . كيف تقود السيارة وأمامنا منعطفات خطرة وسفر يقرب الثلاث ساعات ؟

قال أحمد : في اهتمام واصرار . .

. . الأهم من ذلك كله يا « فضة » أن الطلبة في المدرسة لديهم اختبار يوم غد ، ويجب أن أكون معهم ، فإذا نمنا هنا لا يمكننا أن نصل في الصباح واختبر الطلبة في مادتي ، هذا لا يمكن يجب أن أواصل السـير .

وأمام إصراره لم تجد « فضة » جدوى من الحوار في هذا الموضوع واتخذت وضع الإسترخاء ، وهيأت نفسها لاغفاءة صغيرة ، وكان السكون شاملا عدا أصوات العربات المارقة بجانبهم في سرعة مخيفة .

وبعد فترة لا تعرف مداها صحت من اغفاءتها تلك على اهتزاز العربة وصوت احتكاك الفرامل على الأسفلت ، وفي لمحة بهرها ضوء شديد مقبل من الأمام ، ما لبث أن جثم عليهم ، وتناهى إلى سمعها صوت قعقعة وتحطم أشياء أعقبه ظلام دامس ، ولفتها دوامة أصابتها بالإغماء .

وعندما أفاقت من اغمائها وجدت نفسها على سرير أبيض في المستشفى وبعض الضمادات حول ساقها ورأسها ، وعرفت ماذا حدث ، فأخذت تصرخ تسأل عن أحمد ، وماذا حدث له ؟ واتاها الجواب أنه بخير ماعدا بعض الرضوض مثلها ولم يخبرها أحد بوفاته إلا بعد أن خرجت من المستشفى .

وذهب إلى قريتها ، وحزنت فضة وبكت كثيرا وهى تضم إلى صدرها ابنها طارق ، وترى في عينيه عيني أحمد وطيبته ، وصرخت في داخلها ، يا إلهى كأنما كان يودع الحياة ، أبعد كل تلك السعادة والمرح واليوم الجميل ، تنعكس الأيام إلى حزن مستمر ولوعة قاتلة ؟ أتيهما الأيام يوم سعادة وسنين حزن . . وحسرة . . ؟.

ومضت بها الأيام وقد ذهبت تلك الإبتسامة الوضاءة ، ونحل ذلك القوام البديع ، ولم تجد سلوتها إلا في المدرسة وبين طالباتها ، تحنو عليهم وتحل مشاكلهم ، وتبصرهم في الحياة ، وكان حاضرها ملكاً لطالباتها ، وابنها طارق كان بهجة عمرها وأمل حياتها ، واشراقة الدنيا في عينيها .

وشب جديراً بالحب والإعتزاز والزهو ، متفتحاً قوياً ، متفوقاً طموحاً ، نواح كثيرة اكتسبها من شخصية أمه ، وجوانب عديدة من فكرة كانت تجاوباً لفكرتها رابطة عميقة كانت تربط بينهما ، ليست مجرد أمومة وبنوة ، وإنما هى أشياء أعمق وأكبر ، صداقة ، تقدير متبادل ، تفاهم وتعاطف ، كل ذلك داخل إطار لا تدليل فيه ولا تبعية .

وأحست برجولته المبكرة ، بلهفته الدائمة على حمايتها ، وبحبه وتفانيه في خدمتها ، واعتزازه بقومه وجماعته ، وحبه لأرضه ، وصلته لذويه وأقربائه ، كان الجميع يحبه ، حيثما ذهب محط الأنظار والتقدير لشهامته وحبه الصادق لهم .

وعندما أنهى المرحلة الثانوية ، سعد بقرب تحقيق حلمه في أن يصبح مهندساً زراعياً يعود إلى قريته يوماً يخدم أهلها المزارعون ، ويصلح من أوضاعهم الزراعية .

ويوم أن حزم حقائبه استعداداً للسفر إلى الرياض ليلتحق بكلية الزراعة ودعته القرية كلها ودعته إناثها بالدموع ، والرجال بالبشر والأمل ، وسافر تحوطه كل تلك القلوب التى أحبته وأحبها ، وفي الطريق مسح دمعه ترقرقت على طرف عينيه ، وحرارة قبلة أمه لا تزال عالقة بخده ، عندما ضمته إلى صدرها وقبلته وأمطرته بوابل من القبل الصادقة على خده ورأسه ، ومن خلال دموعها قالت له :

.. أكتب لى يا طارق عن حياتك هناك وطمنى عليك .

قال مبتسما ، وهو يبتلع ألم الفراق ..

.. سوف أكتب لك كل يوم رسالة ، عبارة عن مذكرات يومى ، وانحنى يقبل يدها ، فمسحت على رأسه في حنان وقالت :

.. الصلاة يابنى ، لا تنسى ربك ساعة الفرح ، فانه لا ينساك ساعة الضيق .

وعاشت معه أيام فراقه ، وهى تشعر بنفسها معه في كل ساعات نهاره وليله وذلك من خلال رسائله لها ، التى كانت ترد عليها بغبطة وسعادة ، عاشت معه في الجامعة وفي نزهاته وجلساته مع أصدقائه ، وكان ينتقل معها بين غرف المنزل وفي المدرسة ، ومع عمتها وصالح ويتمشى معها عند العصر على الحقول والجبال وكأنما لم يفترقا أبداً .

ونتيجة الألفة بين الإبن وأمه لم يكن طارق يخفى شيئاً عنها ، وذات أمسية عندما زار القرية فتح لها قلبه ، حدثها بأنه يحب فتاة من القرية المجاورة التقى بها في سوق الربوع ، وتعرف عليها وربط الحب قلبيهما ، وهى في مثل سنه ، وقد أنهت دراستها الإعدادية .

وهو بكل شيء فيها معجب بجمالها الهادىء ، واتزانها وتصرفاتها المحافظة المتدينة ، هى الفتاة التى تمناها شريكة لعمره . .

قال طارق :

. . تعرفيننى يا أمى لست طائشاً متهوراً، وقد فكرت في هذا الموضوع عشرات المرات قبل أن أحدثك فيه ، وارتأيت أن يتم الز فاف بعد تخرجى بإذن الله . . . . . . هل لديك اعتراض يا أمى ؟

وردت فضة على الفور . . فلم يترك لها شيء تسأل عنه أو تخطط له ان فكره فكرها .

أبداً أبداً . . ليس لدى اعتراض . . وما دام هذا اختيارك وأنت تحبها فهى حتما جديرة بالإعجاب وجديرة بك . .

وأمسك بيدها ورفعها إلى شفتيه وقال : بعد أن طبع عليها قبله . . . . لولاك ومثيلاتك ما استطعنا نحن جيل الأبناء أن نشب قادرين على حسن الإختيار .

وصاحت ضاحكة بمرح :

. . أنتم والحمد لله ، قادرون على كل شيء . . عندكم الشجاعة الكافية على المصارحة برغباتكم ، والجرأة الكافية للحصول على مطالبكم .

نهض طارق وانحنى يطبع قبلة على جبينها ، وقال :

. . لولاكم أنتم . . لما شببنا قادرين على حمل متاعب الحياة . . فأنتم الأصل والشعاع الذى يضىء لنا الطريق، ويرسم لنا خطواتنا في الحياة . فدعت له بالتوفيق والسعادة والرضى .

بعد رحيل طارق للدراسة . . . . اتجهت « فضة » تعاون عمتها في الأعمال ، فكانت تحلب البقر والماعز كل صباح ،وتجلب الماء على ظهرها من البئر ، فتقول لها عمتها ضاحكة :

– أنت تحملين قربة الماء يا « فضة » ؟ وتحلبين البقر ؟

– وماذا في ذلك ياعمتى ؟

– أنت حضرية ، ومتعلمة ، مالك وهذه الأعمال ؟

فقالت « فضة » معاتبة :

– كيف تقولين ذلك يا عمتى ؟ وأنا فلاحة مثلكم !

– وماذا لو رأتك إحدى طالباتك ؟

– العلم لا يمنع أن أعمل، وسوف تفتخر الطالبة بمعلمتها عندما تراها تعمل مثلها ومثل أية فلاحة أخرى . . . .

وأردفت قائلة :

– ثم لا تنسى أننى من هذه الأرض ومن فتياتها .

فقالت العمة باسمة متوددة :

– لا تغضبى من كلامى ، كل قصدى أن لا تتعبى نفسك، رغبت لك الراحة يا إبنة أخى .

فقالت « فضة » باسمة ؛ :

– أعرف قصدك، وأقدر حبك ، ولكننى أجد الراحة في مساعدتك فلا تحرمينى لذة العمل الذى أحبه .

وكانت « فضة » تشارك في مواسم الزرع ، ومواسم الحصاد ، ابن عمتها صالح ذلك المزارع النشيط المتوقد رجولة وشهامة ، فما

أن يرتفع صوت المؤذن . . لصلاة الفجر حتى يهب من نومه فيصلى ثم يذهب يعمل في الحقل حتى الغروب ومن ثم يعود منهكاً تعباً ، فيأوى للنوم .

لذا كانوا لا يرونه إلا نادراً من الوقت ، فجميع وقته يقضيه في حقله وعلى بئره حياته كد وعمل وإنتاج .

حتى ابنه الوحيد الذى يرعى الغنم في بطون الأودية ، وعلى سفوح الجبال الخضراء العالية، رفض صالح بكل غضب أن يتركه للتعليم .

وكانت حجته لفضة ، كلما ناقشته الأمر ، قوله :

ـ أننا لو تعلمنا كانا أنا وأخى «محمد» وابنى ، من إذاً يقوم بزراعة الحقل ؟ من يرعى الغنم ؟ من يجلب لنا القوت ؟ من يحفظ لنا الأرض ؟

يكفى أن يتعلم أخى محمد ، وابنك طارق ، وأبقى أنا وأبنائى للأرض نحرثها ونغرسها ونجنى ثمارها ، ونقدم الخير للجميع .

فتقول له فضة :

ـ ولكن في هذا الأمر تضحية :

ورفع بصره إليها متفحصاً ثم أرخاه إلى الأرض وتناول أحد أعواد الذرة اليابسة وراح ينكث به التراب متلهياً ثم قال :

ـ ليس في هذا الأمر أى تضحية ، أو أى شيء من هذا القبيل، أبداً إننى أقوم بذلك برضى نفس وطيب خاطر ، لأننى أعشق الأرض وأطرب لثغاء الخراف وأعيش على أمل وفرة المحصول ، وأدعو الله أن يسوق المطر ، يسقى به الحرث .

هذا الأنسان قدرته « فضة » فكانت تعطف عليه وتخدمه وتهىء له سبل الراحة ، وتحث زوجته على ذلك ، وهى الخدومة الصابرة مثله تماماً ، صامتة معظم الوقت ، وكأنما تعيش في الظل .

وكتبت « فضة » رسالة إلى « محمد » تطلب منه أن يرسل إليهم بمكينة ترفع الماء . تساعد أخيه بدلا من البقر ، ولم تمض أيام حتى وصلت المكينة وسر بها صالح ، وعندما سمع صوتها أول مرة رأت « فضة » الإمتعاض مرسوماً على ملامحه .

فقالت مازحة :

– صوت المكينة أحب من صوت خوار البقرة .

فرمقها بنظره وقال :

– بل صوت البقرة، لقد نفرت الطيور المعشعشة في البئر على صوت المكينة ، وكانت تشدو معى على الساقية .

فقالت وقد فهمت مايعنيه :

– ولكن هذه المكينة توفر جهدك ووقتك الذى يذهب وأنت تسوق البقر على البئر أليس كذلك ؟

– نعم ، نعم، وهى أسرع في سقى الحقول ولأجل ذلك فأنا مضطر لقبولها .

فابتسمت وقالت : تمازحه مسرورة :

– بل قل أنك كبرت في السن (عود) واسترحت للآلة .
فتعلو ضحكات صالح من القلب حتى تبدو أسنانه الصفراء .

وتمضى أيام وتكتب من جديد لابن عمتها « محمد » تطلب حراثة صغيرة .. تساعدهم في حرث الأرض وبذرها . . ولم يمضى وقت كبير حتى أقبلت الحراثة الجديدة .

واحتار صالح كيف يديرها أو يحركها ، ورأى فيها آلة صماء لا نفع منها وتركها مهجورة ، بينما عرقه يتصبب خلف المحراث الخشبي العتيق يحرث الأرض .

ورأته « فضة » فقالت له :

ـ لماذا لا تذهب ياصالح إلى الوحدة الزراعية وتطلب منهم خبيراً يرشدك كيف تعمل هذه الحراثة ؟

فيرد عليها غير صادق ، سوف أذهب إليهم إن شاء الله .

ويتكرر طلب « فضة » كل مساء وصالح يعدها بالغد سوف أذهب . . ولا يفي بوعده . .

فقد كان في قرارة نفسه يعشق المحراث الخشبي ويعتز به ، ويعز عليه هجره . . أما تلك الآلة فهى شيء دخيل عليه .

وأمام إلحاح وإصرار « فضة » المستمر يذهب إلى الوحدة الزراعية ويتعلم . . إدارة الحراثة .

وتراه « فضـــة » يعمل عليها فتسر سروراً بالغاً . . ورغبت في ممازحته فقالت :

ـ أراك ياصالح تمتطى جواداً من حديد . .

فيبادلها الإبتسامة ويقول سعيداً :

– حياة جديدة . . وصراع من نوع جديد ، فلنجربه يافضة .

تحت سفح الجبل المطل على مزارع « صالح » ركيب مهجور كان الأجداد يزرعونه أيام المطر ، ونظراً لقلة الأيدى العاملة مع صالح فقد أهمل زراعته واكتفى بزراعة الحقل القريب منه ، وعلى قدر استطاعته ، أما الآن والحراثة تعمل بسرعة ، والمكينة ترفع الماء بسرعة أكبر ، فقد وجد نفسه يكاد يصاب بالكسل الأمر الذى جعله يفكر في زراعة واستغلال ذلك الركيب المهجور .

ونفذ فكرته ، وحرثه ، وبذره ، وهطلت الأمطار كثيفة غريزة ، فارتوت الحقول وامتلأ الركيب بالماء ، ولم تمض أيام حتى بدأت تتأود عيدان الذرة الخضراء التى كانت مرآها لدى صالح يضاهى مرأى الذهب في عينى المتلهف الفقير .

وذات يوم بينما كان يعمل في الحقل رفع رأسه على صوت ثغاء خراف قريبة ، ونظر فاذا الغنم تعبث في ركيبه العزيز ، فأسرع يطردها ويصيح فيها وأمسك بالراعى يهدده ويتوعد لو عاد بها إلى هنا ، وصفعه عدة صفعات وطرده وغنمه خارج الركيب .

وذهب الراعى وأخبر والده بما حصل ، وأن صالحاً من القرية المجاورة قد ضربه وشتمه وتهدده ، فأحتدم الرجل من الغضب ، وصبر حتى صباح اليوم التالى فقاد بنفسه القطيع إلى هناك ، فالتقى بصالح ، وعندما هب صالح يطرد الغنم عن الركيب تصدى له الرجل وقال له :

– لماذا تمنع الغنم من الرعى يا صالح ، أتركها ترعى

فرد صالح غاضباً :

ـ كيف أتركها تأكل مازرعت ؟ ألا ترى هذه الذرة الخضراء ؟
فقال الرجل وكله حقد واستفزاز :

ـ ولماذا تزرع هنا أيها الغبي ؟ إننا نرعى هذا الجبل منذ سنين ولا يمكن أن نعود عن ذلك .

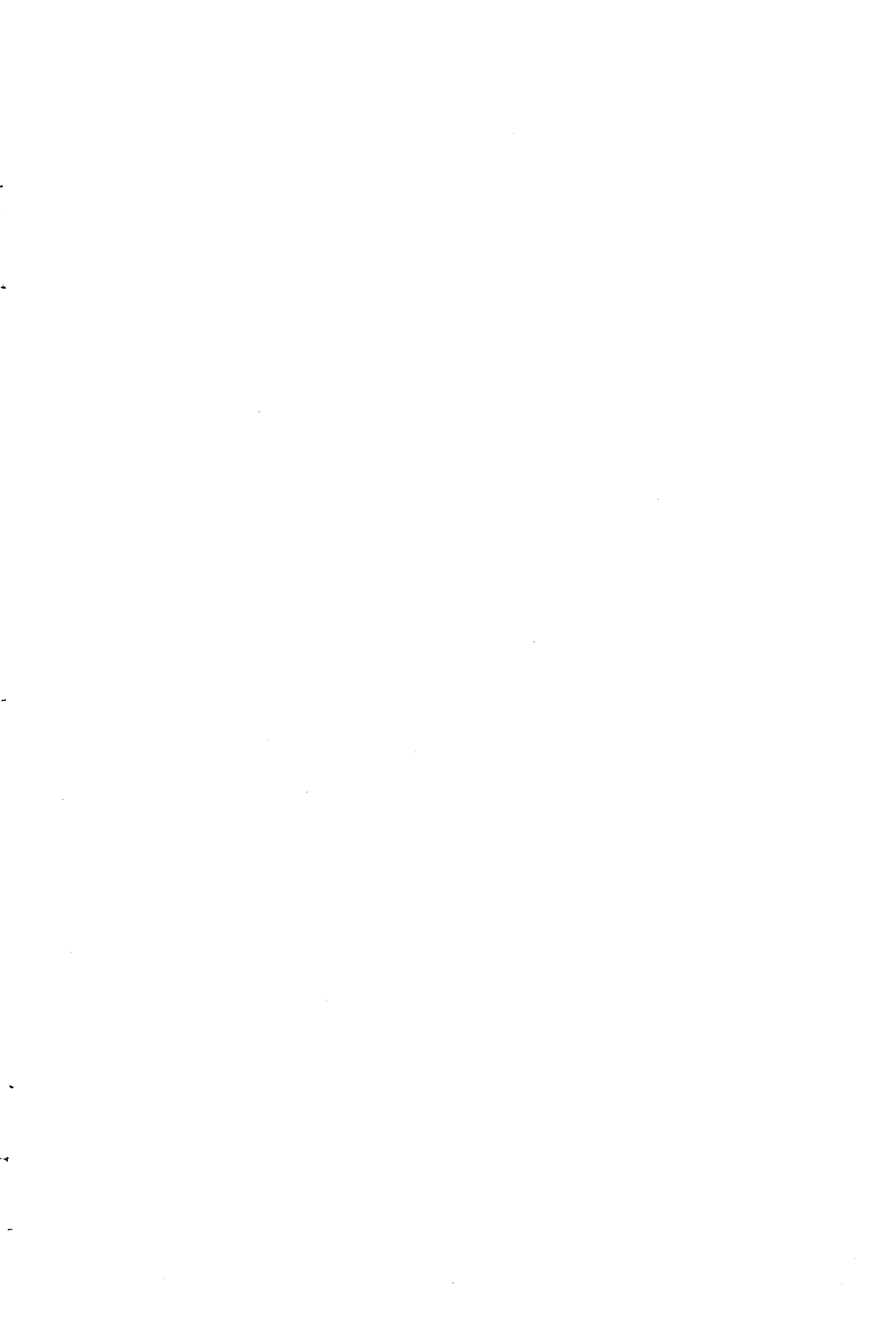
واشتد النقاش الغاضب بين الرجلين ، واشتبكا بالأيدى في عراك مرير استعملت فيه الحجارة والعصى وأى شيء تقع عليه اليد .

وكان صالح قوى البنية طويل القامة مفتول العضل ، فتغلب على خصمه وطرده من أرضه ، وعاد منهوك القـــوى إلى الدار ، وعلم الجميع بما جرى ،فنصحته « فضة » بأن يلجأ إلى رجال الأمن يخبرهم باعتداء الرجل على حقله وعليه ، ولكنه رفض وفضل الموت على ذلك .

غير أن الرجل أحس بالمهانة والذلة ، وراح يترصدصالحاً ويتحين الفرص للانتقام .



الفصل الثالث



منذ صباح اليوم الباكر الجو ينذر بقرب هطول المطر ، الرياح تعزف ألحانها فترقص الشجر وتطرب الحقول وتصطرع النوافذ . . تزف المطـــر .

وتناثرت زخاف على الأرض هنا وهناك ، وتسللت أحداها إلى صدر صالح عبر فتحة ثوبه فرفع رأسه ينظر إلى السماء ، وتمتم الحمد لله ، الحمد لله وابتسم في سعادة .

وسيقان الذرة في حقله الجديد بدت تتراقص مع ريح المطر ، وكأنما تعبر عن فرحتها ونشوتها .

وانكب يصلح مجارى الماء ، ويعد الحقول لاستقبال الغيث بفرح وهمة وسعادة وفي عتمة السماء التى أعقبت آخر شعاع من أشعة الشمس ، قفل صالح عائداً إلى الدار ، خلال الدرب المؤدى إلى ساحة القرية .

الطريق موحش كئيب لفه الضباب الخفيف وعمه الظلام في ليلة هجر فيها القمر كوكب الأرض . . ويشق غلالات الليل بين الحين والآخر ضوء البرق ، ليرى صالح الطريق . . وتبدو الأشجار كأشباح خرافية . .

بينما الريح هادئة ، والسكون شامل ماعدا قعقعة الرعد وصلصلة البرق بين فترة وأخرى .

وهناك على جانب الطريق كمن شخص خلف شجرة لوز عتيقة يتتبع سمعه وقع أقدام صالح على الطريق ، ويخترق نظره حجب الظلام ، ويترصد كل شبح يتحرك .

لا شيء هناك ، الجميع تركوا الحقول وأووا إلى منازلهم . . إتقاء من قرب هطول المطر ، وهرباً من الجو المكفهر ، لا شيء عدا وقع خطوات صالح ، يسير مكدوداً « ومسحاته » على كتفه سعيداً بما أدى من عمل طوال نهاره فرحاً بنزول . . المطر ، يزفه عبر الطريق صفير الحشرات ، ونقيق الضفادع ، وعواء كلب قره البرد يأتي من بعيد .

ولمع البرق ورأى الرجل المختبىء شبح صالح يقترب من فوهة السلاح ، فأستعد وسحب الزناد وانتظر ، وما أن غمر البرق بضوءه المكان من جديد حتى دوى فجأة صوت طلق نارى من خلف شجر اللوز ليستقر في ظهر صالح ويرديه قتيلا .

وندت منه شهقة عالية مالبث أن أسلم بعدها الروح ، وساد المكان فترة من الصمت الموحش الكئيب ، ومن ثم عاد عواء الكلب وأصوات الحشرات ، وكأن شيئاً لم يحدث ، ومن بين صوت البرق والرعـــد .

فضة وحدها التى ميزت صوت الطلق النارى . . وجف قلبها . . وأدركت بأحساسها المرهف أن كارثة قد حصلت وانتظرت بقلق أن يحضر ابن عمتها من الحقل ، ومضت الساعات بطيئة حزينة ولم يحضر ، واتجهت إلى عمتها تسألها عنه ، ولماذا لم يحضر حتى الآن ؟

فأصاب القلق العمة وأفاقت على تأخر ابنها فانتهبها القلق والحيرة والتوجس وسألت عنه زوجته ، فلم تحظى بجواب ، وكررت السؤال لابنه فأصابه الدهشة واتجه إلى ناحية الحقل والكل خلفه يركض متوجساً قلقاً .

وصعقوا للمفاجأة .. وبكت الأم ، التى فقدت ولدها ، وبكته الزوجة التى فقدت رجلها ، وبكـاه ابنه الذى فقد أبيه ، وبكته « فضة » بكت فيه الشباب والرجولة .. بكت فيه ابن العمة والرجل الذى عجن بطين الأرض فأرضعته ثمارها وخيرها ، بكت فيه الفلاح الذى اختلط عرقه بتراب الأرض فأنبتت الخير للجميع .

وصعق الأب المفجوع في إبنه .. وارتسمت على ملامحه هموم الدنيا بأسرها واصابه ذلك الوجوم من هول الكارثة ، وعندما أفاق لنفسه حمل ابنه وغسله ودفنه بنفسه في موكب مهيب حزين، وعاد بعد أن أنفض جميع المعزين إلى ديارهم .

ونفسه تمور حزناً وغبناً، وحمل سلاحه وكمن يترصد غريمه من على سفح جبل يطل على قرية القاتل ، وكبده تشتعل حقداً وتعطشاً للثأر ، بينما يصر على أسنانه كمداً وغبناً .

وهطل المطر طوال ذلك الليل وكأنما هو يخلط دم صالح بالأرض التى أحبها وبرغم المطر والظلام ، مكث الشيخ في الجبل يرتجف برداً وينتظر بزوغ الفجر ليلهب رأس عدوه بالرصاص ، وأطل الفجر ، الحقول مليئة بماء المطر ، والطين فرحة تسبح في برك الماء .

كانت فرحة المطر عند أهل القرية عيد ، يهنئون بعضهم بقدومه أما اليوم فحزنهم طغى على كل شيء جميل ورائع .

في ذلك الصباح حضر محمد من الدمام بالطائرة ، وكان جزعاً ملتاعاً على فقد أخيه ، وقابلته فضة وقصت عليه ما حدث ، فألمت به الهموم وشعر بالغم يملا صدره ، وقام في نفسه صراع ، صراع بين العرف والتقاليد والثأر ، وبين العلم والعقل والدين ، ولم ينته الأمر في نفسه وراح في دوامة من الأفكار ، لم يفق منها إلا على صوت ينادى من الخارج .

أخرج يا محمد . . هيا للثأر . .

لم يتردد وخرج إلى رجال القرية وقد تجمعوا أمام الدار متمنطقين بأحزمة الرصاص ، حاملين السلاح بين أيديهم ، وكلهم حمية وصراخ وحماس لأخذ الثأر . . . .

والتقوا « بمحمد » وصاحوا فيه الدم ، الثأر . . الثأر

وهتف جماعة آخرين :

– العين بالعين ، والسن بالسن ، والبادىء أظلم

– أنت شقيق القتيل يا محمد ، فمن يأخذ للمغدور حقه سواك

– أليست فيك النخوة والشجاعة ؟ ؟

– أنا لست جباناً يا هؤلاء . . الحياة عندى لا تساوى قشرة بصلة إننى قادر على أن أقتل قاتل أخى ، وآخذ بثأره .

ودخل « محمد البيت يبحث عن سلاحه وحزام رصاصه ،

عندما دخلت عليه « فضة » وقد كانت تسمع صراخ القوم حول الدار وقلبها يملأه الجزع والخوف من الفتنة وإراقة الدماء .

– و قالت له متوسلة جزعة والدموع تملأ عينيها . . « محمد أصغ لى أتوسل إليك أن لا تفعل ، القضاء يقتص لك من القاتل ، وتعيش آمناً بعد ذلك .

دفعها عنه بعيداً وبقسوة ، وصاح قائلا :

– تريدينى أن أبقى جباناً وأمكث في البيت ودم أخى لم يجف بعد ؟ . . وهؤلاء القوم حول الدار ينتظرون منى أن أخرج وأتقدمهم فهل ترين أن أبقى في الدار مثل الحريم ؟

وبصوت يائس حزين قالت :

– أرجوك لا تذهب شبابك هدراً ، حكم العقل يا محمد، أن المرحوم أخوك لم يدعك تتعلم إلا لتفهم الحياة ويغذيك العلم بنوره وتتدبر شريعة الله .

قال وهو يربط الحزام حول خصره :

– وهل يفهم هؤلاء القوم غير شريعة الثأر ؟ أننى سجين هذه العادة القديمة وسوف أسفك دمه مثلما سفك دم أخى ،هل هان عندك ابن عمتك صالح حتى تطلبين منى التقاعس في الإنتقام له ؟

– أبداً يا « محمد » إننى مثلك ملتاعة مفجوعة ولكن أى جدوى في حل مشكلة بمشكل آخر ؟ . . وما معنى أن تغسل الدم بالدم، أترك للحكومة أمره ، وسوف تقتص لك منه بالقصاص .

- فرضاً أنى أطعتك ، إذاً ما الذى يرفع رأسى بعد اليوم بين قومى ؟ أنظرى إلى « الجماعة » كلهم ملتفين حول الدار ينتظرون خروجى ، فماذا أفعل ؟ .. هل يرضيك أن يصموننى بالجبن والخوار ؟ وأننى لست من قبيلتهم ، ولست منهم .. .. .. لا .. لا ، أتركينى أذهب وجذب نفسه من بين يدى « فضة » وخرج إليهم .

ولحقت به « فضة » ووقفت على باب الدار والجموع تحتها بالسلاح وقد علا بينهم الصياح وكلمات الحمية والثأر ، وأدركت أى فتنة سوف تحدث وأى دماء سوف تسفك ، وصرخت في الجمع بأعلى صوتها ، وقد تحولت إلى كتلة من الوعى والشهامة والروية .

- أيها القوم ، أيها الرجال الشجعان ، يا أبناء قبيلتى ، يا لحمى ودمى ، يا أهلى وعشيرتي ، أنصتوا إلى ، .. .. .. أقسم لكم بالله الذى نؤمن به جميعاً أن أقول لكم الرأى السديد .

وصمت القوم والتفوا برؤوسهم نحوها ، وأشرأبت الأعناق ، واستقرت العيون تنظر ، وسرى همس بين البعض .. ..

ماهذا إنها فتاة وتصرخ في الرجال بأن ينصتوا لها ؟ إنها بخلاف عاداتنا .

وقال آخر :

- لنرى ماذا تريد أن تقول هذه « الحرمة » .. .. أنصت .

وارتفع صوت « فضة » مجلجلا ، وقد تحولت إلى شخص آخر .. قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم « خيركم من تمالك نفسه عند

الغضب »، وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم والغضب ، ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد من ملك نفسه عند الغضب » .

وصاح آخر :

– أدخلي الدار وأعجني الدقيق ، وأرضعي الأطفال ، وأتركي الرجال ، هيا يا محمد وأترك عنك كلام الحريم .

وصاحت « فضة » :

– يا ربعي يا جماعتي ويا أهلي . . . . . . ليس عيباً أن أبدي لكم الرأي والمشور ، وأن خديجة وعائشة زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستشيرهن رسول الله ويأخذ برأيهن .

وصمت القوم ، وقد وجدوا في كلامها شيء من الحكمة والمعرفة أما الشيوخ فقد رأوا فيها سعة العقل فأنصتوا يستمعون .

قالت « فضة » : وقد أدركت أن القوم لانوا وأنهم سوف يرضخون لرأيها لو أحسنت القول والتصرف ، ليست بهذه الطريقة يعالج الأمر ، إذا نشب بينكم وبين القوم عراك وسقط منكم ومنهم رجال وسفكت دماء ، فهل ينتهي الأمر ؟

وسكتت برهة وقد رمت بسؤالها الأخير بصوت مرتفع متحدي ولكن أحداً من الجمع لم يجب ، وكانت عيونهم متعلقة بها يطلبونها المزيد عندما قالت :

– وهناك الحكومة، هل نسيتم ؟ سوف يسجن منكم من بقى حياً وربما يقص به وتكون فتنة تشمل الجميع وتدوم مادام حي منا . .
وصاح جمع يسير منهم :

– إنها تقول الحق . . أنها تقول الحق .

وصاح جماعة آخرين :

– إنه الخوار والجبن بعينه .

فصاح فيهم شيخ القبيلة :

– أصمتوا جميعاً ، فوالله إنها تقول الحق، وتنطق بالرأى السديد والحكمة ثم إنها مربية أبناء ومتعلمة . . . . والتفت إليها قائلا : باحترام :

– إذاً ماهو الحل في رأيك ؟ هل نترك دم صالح يذهب هدراً ؟

ورقص قلب « فضة » طرباً وفرحاً ، وقد أحست أن القوم قد لانت قلوبهم وهم على وشك طرح السلاح، لو أجادت القول والرأى .

فقالت : . . أنا لم أقل يا سيدى الشيخ أن تترك دم صالح ، أبداً فهو ابن عمى ومن لحمى ودمى ، وأنا أول من يطالب بدمه ، ولكنى أقول فلنترك الأمر للحكومة ، فحكومتنا ولله الحمد تحكم بالشريعة والإسلام، وسوف تقتص لكم من القاتل .

فقد قال سبحانه وتعـــالى : « بسم الله الرحمن الرحيم » (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما) .(١)

وقال تعالى : « بسم الله الرحمن الرحيم » (ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون)(٢) صدق الله العظيم .

١ ـ سورة النساء آية ٩٣
٢ ـ سورة البقرة آية١٧٩

وصمتت « فضة » وقد وجم الجميع فترة وكأن على رؤوسهم الطير ، وما لبثوا أن تمتموا آمنا بالله .. آمنا بالله .. فليحكم القرآن

وانصرف الجميع زرافات ووحدانا وهم يتمتمون بما قالت «فضة» ويبدون اعجابهم برأيها السديد ، وقولها وعلمها .

والتقت عيني « فضة » و« محمد » .. فتقدم منها وقبض على يدها معبراً عن إعجابه وشكره .. ودخلا سوياً إلى الدار حيث واجهتهم والدته غاضبة ملتاعة ، وقالت باكية :

ـ هل تترك قاتل أخيك يا « محمد » حياً ؟ .. أنت إبني الوحيد فمن يأخذ للمغدور حقه ؟ من قاتله سواك ! .. أليست فيك نخوة الشباب وشجاعة الأقدام ؟ .. أليس ذلك الدم المهدور هو دمك ودم شقيقك ؟

وقاطعها محاولا إقناعها بعدم جدوى ذلك .. ..

ـ ولكن يا أماه .. لنفرض أن الرجل كان أقدر منى وقتلنى

وقاطعته غاضبة ثائرة . . . .

ـ غافله أقتله من الخلف .. أكمن له .. يافضيحتى على الشباب الذين مثلك ، ليتنى أنجبتك بنتاً .. أخوك يقتل غدراً وأنت تتقاعس عن الإنتقام ؟ أنت جبان .. مافائدتنا منك ومن علمك مادمت لا تستطيع أن ترفع رؤسنا بين الجماعة ؟

ـ عجباً أنت تقولى هذا ! ، أقتله من الخلف غافله ؟ تحرضينى على الغدر والختل ؟

فقالت له : بخنق وغيظ ..

– وعندما قتل أخيك غدراً ، هل واجهه وجهاً لوجه ؟ هل أعطاه إنذاراً بأنه سوف يقتله ؟

– ما أراك إلا جباناً .. غيرتك المدينة .. فتنكرت لعاداتنا ، وهذا قاتل أخيك يفر هارباً وأنت تجادلني هنا بدلا من اللحاق به .
فصاح بها قائلا :

– أماه .. لا تعذبيني .. كفاني مصيبتي في أخي ، ألست إبنك . . إذا قتلت غريم أخي اليوم سوف يقص بي ، وبذا تفقدي إبنيك الإثنين معاً ، هل ترغبين في موتي ، واقتربت منه مرتاعة وجلة وقالت بحنان :

– لا .. لا .. لن يقتلوك لن يحرموني من صالح ومحمد وانكبت تبكي في حضن ابنها .. فربت على كتفها وأصلح شيلتها على رأسها ، وقال بصوت خنقته العبرات والإنفعال :

– سوف تقتص لك الحكومة من غريم إبنك ، وسوف يقول الشرع كلمته ، فلن يذهب دم صالح هدرا ، فكوني مطمئنة ياأماه .

ورفعت الأم رأسها وكفيها إلى السماء وقالت : صدق الله العظيم .. أستغفرك يارب وأتوب إليك ، لقد إنجلى الظلام من نفسي بعد أن كدت أدفع بابني إلى الموت ، سامحني يارب ، وأجهشت في بكاء مخنوق صامت . ودنت « فضة » من محمد وهمست قائلة :

– والدك يا محمد إنه في رأس الجبل يتربص الخصم ، إذهب إليه واقنعه بالنزول ..

ونظر إليها بشيء من الإعجاب ، وشعر لأول مرة في حياته بالتقدير والإجلال لأنثى .. لقد احتك في غربته هناك بكثيرات من النساء ، فلم ير مثل هذا العقل وهذا الذكاء وهذا الجمال .

وخرج .. خرج إلى أبيه وكله نور وثقة بما فعل ويفعل .. وصاح في والده يناشده الله أن يعود إلى الدار .. وأن يترك الأمر للحكومة والشرع يحكم في الموضوع ، وتقتص له من القاتل ، وطال الجدال ، وأخيراً رضخ الأب ، ونزل من الجبل وسلم سلاحه وبكى على كتف إبنه كثيراً ، وكأنما هو يفرج عن نفسه بعض أحزانها ولوعتها .

وفي مساء اليوم التالى وصل إلى القرية « طارق » وقد علم بالأمر وقدم تعازيه للأسرة جميعاً ، وكان يبدو في أسوأ حالات الحزن والألم من هول الفاجعة التى ألمت بالأسرة خاصة أن الذى يشقيه ويعذبه شيء خفى في صدره ، باح به لوالدته عندما جمعهما المساء وحيدين .

فلاحظت « فضة » الذى اعترى ابنها من هم زايد ..

– أراك مهمّا حزيناً .. أكثر من الجميع ياطارق ؟

– نعم إني أكثرهم حزناً وألماً ياأماه ..

– ولم يابنى ؟؟

– لأن الرجل الذى قتل أبن عمتك « صالح » .. .. وصمت متردداً وجلا .

ودنت منه وقالت في لهفة : مابه .. مابه .. ياطارق أفهمنى قال وهو يشيح بوجهه بعيداً عنها :

– الرجل .. الرجل .. هو والد الفتاة التى أحببتها وحدثتك عنها .

همت « فضة » بالكلام ، ولكن لسانها ألجم عن النطق أن ما يقوله « طارق » هو آخر ماكان يمكن أن يطرأ على بالها ، لماذا القدر يرغب في تعذيب هذا الشاب ويطعنه في حبه وأمله ؟ لأنه إبنها الذى يحب ؟ أكلّ من يدنو من قلبها تصيبه اللعنة والشقاء والحزن ثم الموتّ ؟ .. لا .. لا .. كل الناس إلا طارق . إلا طارق ، وسقطت على الأرض تبكى وقد فقدت التحكم في أعصابها ، ودنا منها في لهفة وجزع ورفع رأسها وأسنده صدره ، ومرر يده على شعرها ومسح دموعها وقبل رأسها ، وقال في حنان :

– آسف ياأمي .. ما تصورت أننى سوف أكون مصدر ألم لك في يوم من الأيام .. أية مصادفة غريبة تلك ؟ لماذا الفتاة التى أحبها وأريدها زوجة لى والدها هو نفسه . . ؟ وسكت .. ومرت لحظات قبل أن تنطق « فضة » .. قالت :

– هى مشيئة الله ، ولا راد لقضائه ، آمنت بالله ، إننى يابنى قوية الإيمان .. ولولا إيماني لفقدت عقلى منذ زمن .

وقال لها مبتسما مخففاً :

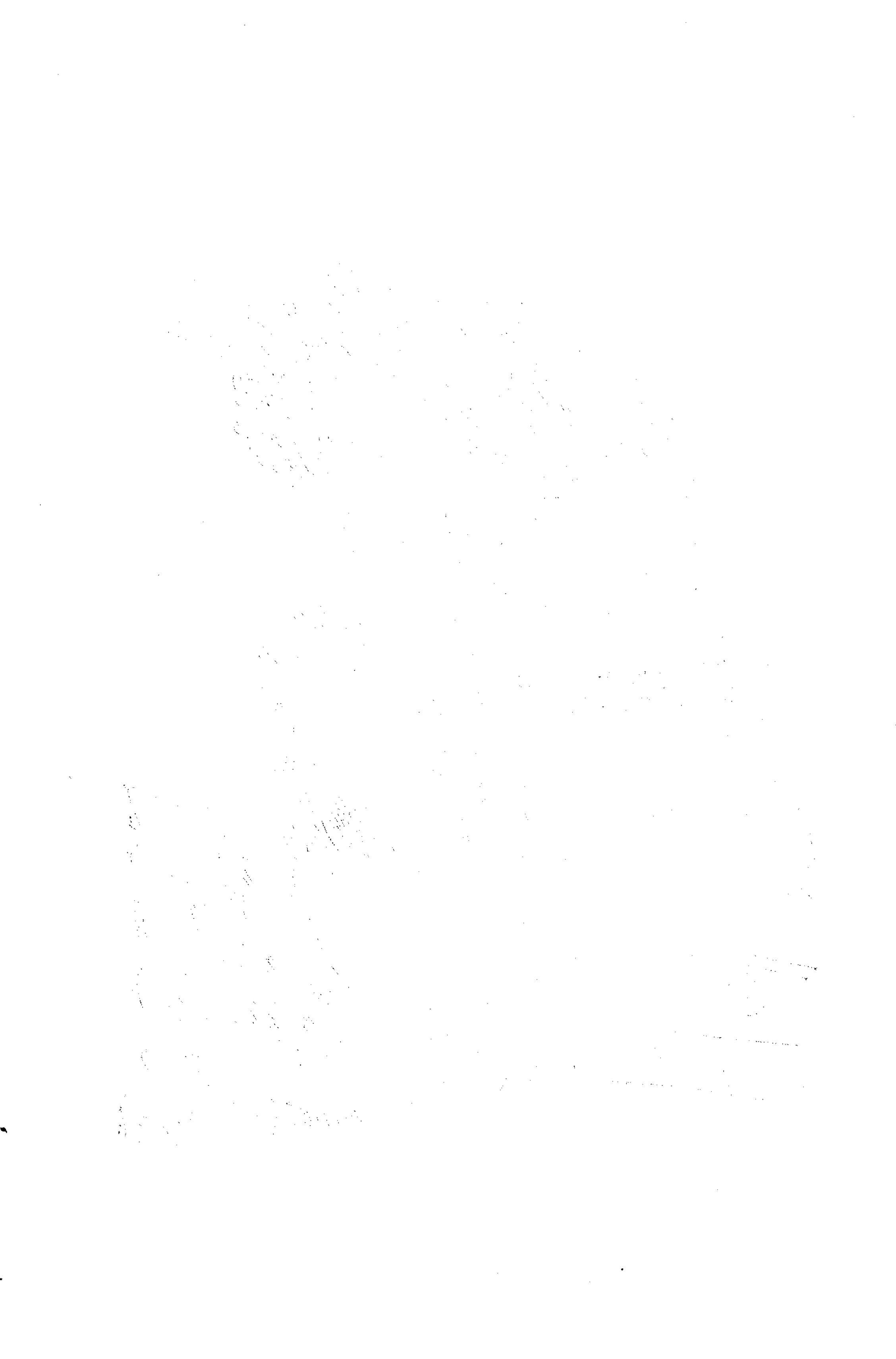
– وأنا كذلك ، وما يكتبه الله لى من خير أو شر في هذا الأمر راضياً به ، فلا تغتمى ولا تهتمى للأمر ، وأتركى الأمور تسير كما يشاء الله ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

وخنقتها العبرات ، ابنها شديد الإيمان مثلها ، وهذا هو البشير بأنه سوف يكون بخير ، فليحفظك الله يابنى ، ويساعدك في حبك .

وسافر طارق إلى الرياض ينهل من العلم في الجامعة بكل عزم ومضاء ، ترك أمر قلبه وحبه لله وحده ، يكتب مايشاء ، ويفعل مايشاء .

الفصل الرابع





وقبض رجال الأمن على القاتل وبدأ في التحقيق معه ، فاعترف بكل شيء ، وهو يبكي ويلعن ساعة الغضب وسوء التصرف .

وأرسل إلى السجن ، وأقتيد إلى القاضي الشرعي وسجل اعترافه بقتل « صالح » ، ومن ثم أودع السجن مرة أخرى في إنتظار الحكم عليـــه .

وكان الحكم معروفاً مقدماً ، فسعى الوسطاء بين القبيلتين للصلح ودفع الدية ، واطلاق سراح سجينهم ولكن والد صالح وجميع أسرته أصروا على طلب القصاص ،ورفضوا كل الأموال والبقر والأراضي التي قدمت لهم .

ولم يقطع الأمل ذوي القاتل وأعادوا الكرة مرة ومرات وتوسطوا بوجهاء القاتل وعالية القوم ، ولكن كان الجواب واحداً في كل مرة كان الجواب يخرج من بين شفتي الشيخ وكأنما هو شريط مسجل في جوفه .

ـ لا يعدل عندي كنوز الأرض جميعاً فقد صالح ، لقد كان إنساناً مسالماً طوال حياته ، يكد ويشقى في الأرض من أجلنا جميعاً ، لقد كان يسير مسالماً مطمئناً فقتله غدراً وغيلة بسبق إصرار وتعمد ، لا شيء إلا لأنه منعه من رعي أغنامه في حقله وكان القاتل معتدياً في الأولة والثانية ، لا يشفي غليلي إلا القصاص ، لا أريد إلا حياته مقابل حياة إبني .

وتمضي الأيام والأشهر والسنين والقاتل في سجنه ينتظر الحكم، تورق الآمال في نفسه كلما علم بتوسط الوجهاء ورجال القبائل، ويعتصره اليأس والقنوط كلما عرف بفشل الوساطة وعدم قبول الدية .

لم يحرقه التمني يوماً كما أحرقه الآن ، ويذيبه الشوق لانقاذ عنقه من الموت ويقتله الندم على ما جنت يداه ، الندم الذى لن يعيد صالح حياً يمشى على الأرض ، ولن تفيده دموعه الغزيرة واستعطافه ولو جفت ينابيعها فوق أقدامهم .

واتجه إلى ربه يناجيه ويصلى له أطراف النهار وأثناء الليل ويستغفر لذنبه ويمتلكه شعور بأنه فقد كل شيء في الدنيا ماعدا دينه وربه .

ويصدر الحكم بالقصاص ، فتقبله بنفس رضية لما حكم به ربه وشريعته ، وأسلم نفسه للعبادة يقضى بها أيام معدودة .

وتهدأ نفوس أسرة صالح ووالده الشيخ الذى أيقن بحكمة « فضة » وسعة عقلها وادراكها للأمور وعواقبها ، وأخذ يفكر لو أن « فتنة » استمرت واستمر هو في رأيه يأخذ الثأر وسقط الرجال من الجانبين ربما ينجو القاتل من الموت ويكون هو وغيره مجرمين محكوم عليهم بالقصاص . .

ويستشهد في إرتياح وسعادة وهو يشعر بالإمتنان والعرفان« لفضة » وتمضى الأيام والشهور والكل ينتظر اليوم الذى ينفذ فيه القصاص وأثناء ذلك كثر تردد « محمد » على القرية يواسى والده والأسرة غير أن « فضة » لاحظت اهتمامه بها بخلاف السابق ، وفي كل مرة كان يحضر لها هدية صغيرة تتقبلها منه بفرح الفتاة القروية البعيدة عن المدينة ، وفي مرة قدم لها ساعة وقال لها باسما :

ـ لتعرفي فيها أوقات الصلاة،وساعات الحصص بالمدرسة وأمسك بيدها ، وكانت في عينيه نظرة جعلت الدماء تتصاعد إلى وجنتيها ، وتلعثمت

وقال برقة :

ـ نلتقى عند الغروب ، قرب كروم العنب ، إن عندى حديث لك .. وكان في صوته إصرار ولهفة ، ربما حياته العسكرية علمته ذلك ، فابتسمت وأومأت برأسها موافقة .

وعلى خلاف ماقد توقعت لم يسألها عن « أحمد » أو عن « طارق » ولكنه إنطلق يحدثها عن نفسه ، عن أمريكا ، وعن دراسته وحياته هناك بعيداً في أرض الغربة ، وعن حياته العسكرية برفقة زملائه الطيارين في القاعدة الجوية .

وتركته يتحدث عن نفسه ، كانت فعلا في شوق لمعرفة كل ذلك عنه ، وعندما صمت ونظر إلى عينها يستشف ماها، كالت له الأسئلة . مستفسرة مستوضحة ،وخصلات شعرها الفاحم تنسدل مع كل لفتة فترفعها بدلال آسر .

وفجأة قال لها في حنان ورقة :

ـ « فضة » يابنت خالى .. ألا نتزوج ؟

ـ أرجوك .. لاتزيد آلامى وصراعى النفسى ، أنا أقدرك وأعزك من كل قلبي ، وليس لى أحد غيرك في الدنيا ، ولكننى .. وقاطعها محمد قبل أن تكمل :

ـ ولكننى أحترق .

فردت بسرعة :

– وأنا رماد

وأردفت وفي عينيها انطفأ بريق كان يضوى

– لقد أكلتنى نيران الأحداث أكثر من مرة ، ولم تتركنى إلا رماداً .

قال محمد بنبرة حاول أن تكون مرحة :

– الإنسان الذى تعلمه الأحداث ويقف أمامها صلداً ،هو الإنسان الذى يستحق العيش والإحترام ، .. ولابد ما توجد تحت الرماد جمرة تتوهج فتعطى الدفىء ، وتستمر الحياة ، فلا تبدى تشاؤمك وكوني مرحة مستبشرة وأتاه صوتها كأنه قدر أعمى :

– سامحنى .. سامحنى .. ليس ذنبى .. ليس في إستطاعتى إسعادك .. أنا إنسانة تائهة الفكر ، محطمة الفؤاد .. وأردفت وقد نهضت واقفة ، تنظر إلى البعيد

– صدقنى يامحمد ، إن ناراً تتوهج داخلى كالشمس ، وعواطفى تضطرم كالموج ، ولكننى لا أملكها ، والآمال عندى كسحب المطر ، قد تتحقق وقد لا تكون ، ودنت منه ونظرت إلى عينيه وقالت :

– هل سمعت بأن أحداً يملك الشمس ،أو البحر ، أو السحب ؟
قال محمد وعينه في عينيها :

– لو أحببتينى بصدق ، لاستطعت أن أملك الشمس والبحر والسحب
وابتعدت قليلا كالمرعوبة وقالت :

– لا . . لا أستطيع أن من يدنو من قلبى يموت لقد ماتوا جميعاً .

وأطرق « محمد برأسه إلى الأرض ، وسادهما صمت موحش، وبعد برهة قال بصوت متقطع كصرير باب عتيق :

ـ وماذا أفعل بحبي ؟ كيف أصبر قلبي ؟، كيف أرضى لنفسى أن أراك تذوبين وتذوبين كالشمعة رويدا رويدا ، وأنا أنظر ، كيف أتحمل مر عذابك بعينى ؟ وأصمت .. .. وأنا أحبك ، وأنت من لحمى ودمى ..

كيف وأنا أحس بشبابي قربك يورق ويزهر ؟ .. وفي بعدك يزوى ويذبل كيف ؟

وأدركت « فضة » أن حديثها قد آلم « محمد » وأنها قد أدخلته في دوامة أحزانها .

فقالت له بمرح :

ـ أرجوك إن كنت تحبنى حقاً ، دعنا من هذا الحديث ، وثق أنى أحبك وأقدرك ، ثم إننى بخير وها أنا في تمام عافيتى وصحتى وشباب .

ونهضت واقفة وجذبته من يده وركضا إلى الحقول .

وفي المساء وبينما هى تعد القهوة ، ناقشتها عمتها في نفس الموضوع قائلة :

ـ يابنتى يا « فضة » حرام مايجوز .. الحى أفضل من الميت ، أنت تعذبي نفسك وتعذبي « محمد » ابن عمتك ، ومن لحمك ودمك والا أنت ما تحبين عمتك ؟

ـ أبداً ياعمة صدقينى أنا أحبك مثيل روحى وأنت عينى والثانية محمد لكن ماهو بيدى ، صورة أحمد دائماً أمامى وفي خيالى ، كيف

أنساه وكان يحبني أنا ما أقول شيء في محمد ، والله إنه زين الرجال ، وانه غالى عندى مثيل أعيوني ، لكن .. صورة أحمد تطاردني كل وقت وحتى في المنام ، أعـز الناس والذين أحبهم يموتون .. أبي وأحمد كلهم ماتوا .. وتنخرط في بكاء وشهيق .

واستبدت بها حيرة هى لا تستطيع أن تنزع الوفاء والإخلاص من قلبها وهو الشيء الذى ربيت عليه ، فتنس أحمد أو تغدر به ، ولكنها تتساءل ، أين أحمد لقد مات وانتهى ، هل تظل مخلصة له ؟ إن ماكان يربط بينهم هو رباط الزوجية والإحترام .. وهذا ابن عمتها ماذنبه يطفيء شبابه في حبها ،ويتعذب بهجرها ، إنها قسوة منها ، لماذا ساق القدر إليها هذا الحب ؟ .. وجعلها في هذا الموقف ؟ .. ويضنيها شعور حاد بالكآبة ..

ويهجع كل الناس ، وتظل هى سهرى ، تشرب الوسادة دمعها الليلى ويأتي الصباح يكشف كآبتها وسهدها .

ويعود « محمد » إلى القاعدة الجوية وحب « فضة » قد تملك قلبه وشغل كل تفكـيره وهمه .. وكتب لها رسـالة أخرى ، فردت عليه قائلة :

ـ أنا أحبك .. وأقدرك وأحترمك ، فامنحنى فرصة التفكير لعلى أنسى أحزاني الماضية وجراحى النازفة ، وأنسى أحمد .

لقد ذهب كل من أحببت ، وأخاف عليك لو أحببتك .. ستذهب وتغادر عالمى مثلما غادره أناس من قبلك ، إني أحس بالكآبة تعتصر قلبى .. ويبدو الجو قاتماً كلما حان موعد سفرك من قريتنا .. وأفتقدك اكثر من غيرك ، وتبقى في صدا نفسى كلماتك الحلوة التى تقابلنى بها في كل لقاء .. ومسامراتنا الطويلة في ليالى الصيف

المقمرة على سطح الدار ، وفي ليالى الشتاء الباردة حوال أعواد الحطب في الموقد .. والضباب يملأ الطرقات والحقول ويلف المنازل .. وصوت نقرات المطر على أسطح الدور والنوافذ وارتطامها بالأرض وتلك الرائحة المميزة المحببة عقب كل مطر ،وضحكاتنا ، إنها هناك لاتزال حول الغدران وفي منعرجات الأودية وأحاديثنا الطويلة فأنا أحب الحديث وأجيد الإستماع ..

هذا كل ما بيني وبينك وانتظر اليوم الذى أراك فيه بفارغ الصبر متلهفة أجلس القرفصاء قربك ، منتشية بكلماتك العذبة ، وابتسامتك الرائعة وصوتك الهادىء المتزن ، حياتي مليئة بالناس ، وجوه مختلفة تجيء وتروح .. وزهور متفتحة للعلم أشاهدها كل يوم ، أحب الناس وأحب قربهم ، وأبحث في شئونهم وشجونهم فيفتحون لى مكنونات صدورهم بصدق وعطف وتفهم ، وأنت .. أحدهم بل أقربهم إلى نفسى وقلبي ، طفل كبير لا يزال يبحث عن مكان لروحه الحائرة بعيداً عن التفاهة وسطحية الأحاسيس .

وجدتك بعد طول جدب في حياتي العاطفية .. فراح أحدنا يكتشف محاسن الآخر ،غرقت في أغوارك متفهمة لمشاعرك الخبئة .. مستمتعة بموهبتك الشعرية التى حملتنى إلى عوالم شفافية حلقت بي في أجواء من الأحاسيس والعاطفة يصعب وصفها .. أنت شاعرى الموهوب أعطيتك ما بخلت به على عديدين ، وحلمت بك آتياً على حصان أبيض وتخطفنى إلى عالم أحلامك ..

وددت لو أن هناك قوة تبعد عنى شبح الخوف .. الخوف عليك من أن ترحل عنى مثل الآخرين .. وددت لو أن سماء قلبي صافية

لأحتضنك وأخبئك من منجل القدر .. أنت تلمح ولا شك لهفة الشوق في عيني ، وتحس رعد الخوف في يدى ، عودت عيني النظر إليك .. لأملأ الفراغ الذى يتركه فراقك ورسمت صورتك على الجدران والحقول والشجر ، وبين الضباب أراك،أشعر بك تقترب مني كل لحظة وأنتظرك وأخاف أن تذبل زهور ربيعك وربيعى قبل أن نقطعها وننتزع أشواكها .. أخاف أن تنضب ينابيع حناني قبل أن تسقيك وحدك من شدة خوفي عليك، وددت أن تكون مجرد وهم رسمته لنفسى وصدقته وعشت من أجله .

لا .. لا .. لاتأت على حصان أبيض يافارسى الصغير .. فقد اختطفتنى هموم الحياة وقاسيت منها الكثير .. فليس في نيتى حصان أبيض ولا سعادة في عالم الحزين ولا زهور في حقل حياتي .

أكذب عليك لو قلت تعال وخذني على ظهر حصانك .. فأنا أحبك ولا أريد لك الشقاء ..

وأقول لك وقلبي يتمزق حرقة وألماً .. أبحث لك يافارس عن أميرة غيرى خالية صافية تحلم بفارس مثلك .. .. وأتركني حتى يعود لى اطمئناني ويهدأ طائر رعبي وخوفي ، وتجلوا سحب أحزاني من حياتي .. . يومها سوف أكون صافية خالية لك .

وألهبه هذا التذبذب وهذه الحيرة من « فضة » وزاد حبه وشوقه لها وود لو أن يفتديها بروحه ، وتسعد وتمنى من الله أن تكون زوجة له ، يسعد بقربها وعقلها وجمالها .

وأخذ يصبر ويمنى نفسه بأنها سوف تكون له ، وتنتهى أحزانها وحيرتها ، وعلى هذا الأمل كان « محمد » يعيش وينتظر الساعة التى تحين فيها البشرى ، وينفرج همه وأحزانه .

وكتب لها رسالة أخرى جاء فيها : نحن الآن في أوائل شهر الصوم والأمل الذى يراودني يسعدني أنني سوف أقضى أجازة العيد معكم، أسعد خلالها بمرآكم الجميل وأحظى بحديثكم العذب وفكركم الثاقب ، وسوف نتنزه سوياً بين الحقول الخضراء، ونصعد معاً الجبال ونهبط الوديان . . ونقضى ليالى السمر بالشعر والغناء والعرضة لكم أحب ربوع بلادى وأعشق تربتها وأهلها وأشجارها ولوزها اللذيذ . . وأحن إلى المزارعين الذين تتعطر أبدانهم بالعرق النبيل يعملون في الحقول وأظمأ كلما جرعت ماء الثلاجة . . وأحن الى ماء إلى ماء القربة المعلقة في طرف البيت يلامسها النسيم فيبردها برداً طبيعياً عذباً . . إن مذاقها لا يزال عالقاً بسقف حلقى وأشتاق لليالى الشتاء الباردة والضباب الكثيف يمـلا الطرقات وطمس المعالم وحين تغفو نيران أعواد الحطب في أحضان المواقد بعد سهرة جمعت كل الأسرة والأحبة . . ويطفى صوت الريح والرعد الهادر على كل الأصوات وتضاء البيوت العتيقة بومضات البرق الخاطف .. ورذاذ المطر يهمى يغسل الشجر والجبال والبيوت ، ويملأ بمائه بطون الأودية والحقول . . وتفيض الآبار . . وتنعش الأمال . . « فضة » يا أعز مخلوق في الحياة أنت الطبيعة بخصوبتها واستمراريتها وقدرتها على التجدد والصفاء والعطاء بعد كل موسم مطر . .

لقد تعبت معك وآن لى أن أستريح .. فأخبريني متى يطفأ هذا الحريق يامن بيدها قلبي وعمرى .

لكم دعوت الله أطلب منه أن يبصرك في أمرك ، وأن أعود إليكم لأجد البشرى والموافقة على الأمر الذى بيننا .

في هذه الأيام . . كثف المسئولون علينا نحن الطيارين التدريبات ، وكثرت عدد الطلعات وساعات الطيران . . بالرغم أننا صائمون وفي شهر الصوم لست أدرى سبباً لذلك .

ولكنها حياتنا العسكرية نقبل عليها برضى وطاعة وسعادة وأملنا تحرير أراضينا من اليهود .

وبعد عدة أيام على ذلك وصلت « فضة » برقية عاجلة من « محمد » فيها ما يلي : اشتعلت الحرب بين اليهود والعرب . . سوف أذهب أنا أنا وزملائى الطيارين إلى الجبهة المصرية . . أدعو لنا بالتوفيق . .

وبكت العمة . . وبكت « فضة » والتفتت إلى عمتها وقالت : ماالذى يبكيك يا عمة . . ؟ ان محمداً يقوم بواجبه ، وواجب الرجل العربى يدفع الغاصب ويحمى الديار .

وردت عليها العمة من بين دموعها :

– أنا لا أنكر ذلك ، ولكنه ولدى الوحيد بعد موت « صالح » .

وأردفت قائلة :

– وأنت ما الذى يبكيك ؟ .

ورفعت « فضة » رأسها ومسحت بطرف أناملها دموعها التى ملأت صفحة خدها ونظرت إلى القرى المتناثرة والحقول والجبال ومن بين تنهدها قالت :

– أبكى فيه ابن عمتى الذى أحبنى بكل عواطفه ، فقابلته بالجحود والقسوة أبكى فيها الفرصة التى ضاعت من يدى لأسعده، أرجو أن يعود ليجدني في انتظاره زوجة له . . تغسل قدميه بعد التعب ، وتمسح جبهته بعد المعركة .

ومنذ تلك اللحظة لم يفارق المذياع جانب « فضة» تتسقط أخبار الحرب والمعارك وتنفعل وتتأثر معها ، وقلبها واجف وأفكارها منحصرة في النصر القريب ، وعودة الحبيب .

ولم تتمالك نفسها من الفرح عندما أعلن المذياع تحرير جزء من الجولان واقتحام خط بارليف، وتحرير القنال من اليهود ، وأطلقت زغرودة وعم التهليل والتكبير والفرح ساحات القرية وطرقاتها . . إذاً هى البشرى بقرب عودة « محمد » يالسعادتها وفرحها العظيم .

إنها تحس بأن سعادتها أعظم بانتصار العرب ، لقد رفع الرأس « محمد » واخوته ، لقد انتهى زمن الذل ياعرب ، وذهب أسطورة الجيش الذى لا يقهر وهزم الهول الذى كان يسيطر على العرب ، الله أكبر . . الله أكبر .

وبينما فضة في سعادتها وفرحتها وأحلامها . . وصلت البرقية التالية:

نشاطركم الأحزان . . العزاء . . في استشهاد ابنكم البطل « محمد» أسكنه الله فسيح جناته . . فقد استشهد في ساحة الشرف والجهاد، وكان بطلا أبدى من الشجاعة والإقدام ما أذهل العدو فهنيئاً لكم أهل البطل على مثل هذا الرجل . .

ولف الأسرة ظلام كثيف من الحزن والأسى واللوعة . . كان يخفف وطأته جموع المعزين الفرحين بانتصار العرب الفخورين ببطلهم الطيار « محمد » .

أما «فضة » فقد أصابتها صدمة عميقة ، وذهل عقلها وامتصها الحزن والأسف . . فغدت في حالة يرثى لها ، شحب لونها وضمر عودها

وأصابها وجوم شل تفكيرها واحساسها ، وعقل لسانها عن النطق، وأصبحت كتلة من اللحم لا إرادة لها ولا تصرف . .

وحزن من أجلهـا الجميع وكان حزن ابنها « طـارق » عليها أشد وأعمق وكان من الوعى والادراك ليعرف ويحس بآلام أمـه وعذابها .

كان يبقى في عمق الليل من أجلها ، ويذكر كم قاست في حياتها حتى أتتها الصدمة الأخيرة فقطعت عندها حبل المقاومة فانهارت .

لقد تحملت من الأحزان والصدمات الشيء الكثير . . تعلقت بوالدها وذهب وتركها حزينة . . أحبت في زوجها الشيخ صورة والدها فذهب وأحبت أحمد وهى ترى فيه زهرة شبابها فذهب وتركها للحزن ، وأعجبت برجولة صالح ، فصدمت بحادث إغتياله ثم ابنها الوحيد « طارق » يحب فيصبح والد الفتاة التى يحبها هو قاتل « صالح » . . وتحزن من أجل ابنها وسعادته . . ثم يختم القدر أحزانها باستشهاد « محمد » الرجل الذى أحبته وتمنته . . وكان في حياتها الأمل الأخير . . لنبع السعادة البعيد .

وتلم بطارق الأحزان . . أعز مخلوقة لديه تقاسى الضياع والأحزان والألم . . بينما هو لا يستطيع فعل شيء حيالها . .

أخذها إلى كل الأطباء . . وكان يصدم في كل مرة . . لاعلاج لها إنها صدمة نفسية شديدة . . ربما تفيق منها يوماً . . صرخ فيهم لابد أن هناك علاج لها . .

سوف أذهب بها إلى أقصى الأرض أبحث عن علاجها . . سوف أذيب لحمى لتشفى . . ولكن الجواب كان صارماً . . لاعلاج لها . .

وهدأ « طارق » وأسلم أمره وأمرها إلى الله ، وتمر الأيام وتعقبها أيام وساعة الزمن تدق ولا تقف لحظة واحدة .

ويشاء الله ، فيسوق القدر يهيء الأسباب ويهب العلاج .. ذات يوم حين أراق اليوم الجديد دم الفجر على هام الشجر ودفقه عبر الحقول ، وبدأت الطيور تفارق أعشاشها، ارتفع صياح الديكة .. وأعقبه صوت أذان الفجر يملأ الحقول والأودية والبيوت بنور الله ، و « فضة » في مقعدها أمام الدار المشرقة على المزارع والكروم .

كانت جالسة كعادتها كل يوم .. وإذا أحد الطلبة يذاكر القرآن في الحقل المنبسط تحتها .. وآتاها صوته يردد جاهداً لكى يحفظ القرآن الآيات (١) « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » « فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

صدق الله العظيم

وهبت من مقعدها وكأنما لسعتها أفعى .. وأرهفت السمع وأعاد الطالب الآية ..

أمسكت بجبهتها وترنحت قليلا وتصبب العرق من جبينها ، وأفاقت على نفسها وأخذت تركض إلى داخل المنزل صارخة متعثرة ، عمة عمـــة ..

وفوجئت العمة وهى تنطق بل وتسير إليها بنفسها دون أن يقودها أحد أو يوجهها .. وكانت تعجن الدقيق لتهيىء به خبزاً ، فتركت مابيدها وأسرعت إلى « فضة » تحتضنها ونسيت أن يديها مشبعة بالدقيق والماء . وصرخت متهدجة الصوت ..

---

١ ـ سورة ال عمران

– ابنتى « فضة » الحمد لله على السلامة يارب أنت كريم ولك الحمد أجلسى يا ابنتى . . ماذا جرى وكيف . . ؟ ولم تمهلها « فضة » بل قالت لها :

– لقـــد عدت إلى صوابي . . لقد سمعت القرآن . . وكأنما أسمعه لأول مرة ولم أقرأ تلك الآيات عدة مرات « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .(١)

نعم ان أحمد لم يمت بل هو حى عند ربه ، لقد جاهد في تعليم أبناء القرية وكان سبب وفاته وفاؤه لطلبته ورسالته في الحياة ، ومحمد . . ذهب في سبيل الله ليدمر اليهود وينقذ البلاد الإسلامية منهم ، ونجح في ذلك ثم استشهد في سبيل الله . .

وصالح ذهب وهو يجاهد في حقله مؤدياً رسالة الفلاح لكى تنبت الأرض بالخبز للجميع .

وأنا لى رسالة في الحياة يا عمة . . يجب أن أتمها . . غداً سوف أعود إلى المدرسه أعلم البنات . . لقد اشتقت إليهم . . اشتقت إلى عزة . . وصالحة ، وفاطمة . .

قالت العمة فرحة :

– صدق الله العظيم ، وهو القائل في كتابه العزيز « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين (٢) أشكرى الله يا بنتى على سلامتك . .

---

١ – سورة ال عمران
٢ – سورة الاسراء الاية ٨٢

وأردفت العمة وكأنما تذكرت شيئاً :

ـ لقد أتانا البشير بأن يوم غد الجمعة ، هو يوم القصاص في قاتل « صالح » إن عندنا فرحتين ، فرحة سلامتك وفرحة القصاص .

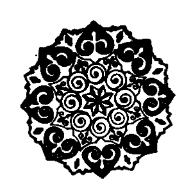
قالت « فضة » :

ـ الحمد لله ياعمة ، لقد كنت متأكدة منذ البداية بهذا الحكم والحكومة يدها قوية على المعتدى الذى يبعث في الأرض فساداً ..

قالت العمة فرحة :

ـ أعرف .. أعرف .. والحقيقة لولا رجاحة عقلك يا ابنتى وعلمك لكنا اليوم في فتنة وغم كبير .

ودنت من « فضة » مبتسمة سعيدة ، واستطردت مواصلة حديثها .. وسوف يسافر هذه الليلة والد صالح وبعض من الجماعة إلى الطائف يحضروا القصاص ..



الفصل الخامس



أذان يوم الجمعة يرتفع مجلجلا ، مهيباً ، فيطهر القلوب وينعش الأفئدة في يوم اشتدت فيه حرارة الجو بمدينة الطائف بخلاف ما اتصف به هواؤها العليل صيفاً .

وأقفلت الحوانيت وأخذ الناس يتوافدون إلى مسجد ابن عباس لأداء الصلاة . . بينما كانت تصل إلى الساحة ، وهى الميدان الفسيح الواقع شرق المسجد ثلاث شاحنات محملة بجنود الشرطة ، وبدأوا في تطويق الساحة ، أعقبها وصول عربة أسعاف بيضاء من المستشفى .

وتجمعت سيارات الشرطة تحيط بالمكان . . وعرفت جموع المصلين أن الميدان يهيأ للقصاص .

وفي السجن حضر كاتب العدل وقائد الشرطة ، ونادوا على المحكوم عليه بالقصاص .

كان يبدو هلعاً مرتاعاً ، وقد عرف عند رؤياهم أن الأمر انتهى وأن هذا يوم قصاصه . . وأرخى رأسه إلى الأرض مستسلماً ، زائغ البصر . . بينما أتاه صوت كاتب العدل يسأله فيما إذا كانت له وصية يوصى بها . . وتلا عليه آيات من القرآن الكريم . . أعادت إلى نفسه الطمأنينة والإيمان . . وشعر في تلك اللحظة أنه يدنو من الله أكثر من ذى قبل . . ورضى بحكم الله فيه ورفع رأسه إلى كاتب العدل وقال بهدوء : وكأنما صوته يأتي من أعماق بعيدة. . . . لا ليس لدى

وصية ، أن مالدى من أملاك ومتاع ومال ، أترك الشرع يوزعه على ورثتي كما جاء بالشريعة الإسلامية .

وقفل كاتب العدل دفتره ، وهم بالخروج ، بينما سأل قائد الشرطة المحكوم فيما إذا كان يرغب في رؤية ذويه وأقاربه ، فأجاب بأنه لا يريد زيادة تحسرهم عليه ، فلا داعى لرؤيتهم ، وهم الجميع بالخروج عندما قال في صوت ضعيف ، فقط أود رؤية ابنتى الصغيرة .

واغرورقت عيناه بالدموع ، وأحضرت الطفلة فاحتضنتها إلى صدره وبكيا الأثنان بكاءاً صامتاً حزيناً .

وبعد فترة وجيزة أوسد أصبعيه ذقنها الصغيرة ، ورفع رأسها إليه . . ونظر إلى عينيها الصافية ، ووجهها البرىء وقال لها : وصوته مخنوق أشبه بآلة لم تحكم أوتارها :

– هل تحقدين على لأننى قاتل ؟

قالت الطفلة بهلع :

– لن يقتلوك . . أنا أحبك . . أنت أبي .

وطبع قبلة مرتعشة كأرتعاش شفتيه على خدها الصغير ، بينما دمعتان عالقتان بأهداب عينه ، وقال وصوته يتدفق إيماناً :

– هذا ماجنته ياابنتى يداى . . أسأل الله المغفرة والرحمة .

قالت الطفلة وصوتها يشع براءة وثقة :

– أنت رجل مؤمن وتصلى لله ، وقد علمتنى الصلاة وقراءة القرآن . وقلت لى أن الله لن يتخل عن المؤمنين .

قال وهو يحملها إلى حجره وصوته يتدحرج كالحجارة المتكسرة :

ـ هذا صحيح . . ولكنه عقاب من ارتكب جرماً .

قالت وهى تطوق ذراعها حول عنقه :

ـ ولكنك قلت أن الله غفور رحيم . . واسع الرحمة .

واستطردت تقول في براءة . .

عندما أصلى . . سوف أدعو الله أن يغفر لك وينجيك من هذا السجن .

ولم يتحمل . . غصص كثيرة ابتلعها وشد على أعصابه حتى كادت أن تمزق . . وكبت على مشاعره وأحاسيسه كى لا تكتشف شيئاً، هذه الطفلة الصغيرة .

وبطرف عينيه الدامعة أشار إلى الحارس . . فأرجع الطفلة ولم يتحمل ، لقد كاد أن ينهار أمامها ، ويبكى كالنساء الثكالا ، وقبلها مودعاً . . وفي صدره شيء كالورق الذابل يتساقط . .

وما إن خرجت حتى توجه إلى صنبور الماء ، فتوضأ لأداء الصلاة واقتيد إلى عربة السجن السوداء المقفلة ، وفي يداه القيد الحديدى وحوله رجال الشرطة بالسلاح .

وصلت العربة إلى المسجد ونزل جنديان وفتحا الباب ، ووقفا بسلاحهما بجانبه . . بينما أمسك به اثنان آخران واقتاداه إلى داخل المسجد لأداء الصلاة، وهناك فكا قيده وبقيا حوله وخلفه يحرسانه .

وصعد الإمام منبر المسجد ، وألقى خطبة الجمعة، وكانت عن القصاص ، وحكمه في الإسلام . . وكيف أنه الجزاء الرادع لمن يقتل نفساً بريئة مؤمنة بغير حق . .

استمع إليها وهو يشعر بالندم، حيث لا ساعة للندم . . وآمن أن الجزاء ، عادلا لقتله صالح ، وتحجرت الدموع في مآقيه، وتجمدت كل مشاعره . . وأدى الصلاة مع جموع المصلين ، أداها في خشوع وإيمان ورهبة ، وأحس لأول مرة كأنما يصعد درجات إلى الله ، وأنه أكثر من ذى قبل قرباً منه . .

وما أن قضيت الصلاة ، حتى هرع جموع المصلين يتحلقون خلف الجنود في الساحة لمشاهدة القصاص .

وفي المقبرة القريبة من المسجد هيء قبر جديد ، ومكث رجلان ينتظران الميت لدفنه .

إقترب جنديان ووضعا قيداً حول قدميه بحيث يتيح له أن يخطوا خطوات ضيقة وأحكما قيد يديه بطوق من حديد ، ودفعاه أمامهما إلى الساحة الخارجية للمسجد حيث التنفيذ .

كانت هناك جموع كبيرة من المشاهدين منهم من يقف خلف الجنود ومنهم من تسلق الشاحنات الكبيرة، وكان هناك صف من الجنود يحوط الساحة في شبه طوق .

واقتيد القاتل إلى وسطها ، وأجلسوه على ركبتيه وقدميه ، وفكا القيد من يديه ، وجذباهما خلف ظهره وربطاهما بحبل وثيق .

وتقدم رجل يرتدى الملابس البيضاء وأخذ يرسم دائرة على قميص القاتل تحدد موضع القلب مباشرة .

وعندما أنهى الجميع مهماتهم ، ابتعدوا عنه ، وترك وحيداً في الساحة، عدا جنديين مسلحين يقفان على بعد أربعة أمتار، وبرز شخص إلى الساحة وأخذ يقرأ على الجموع من خلال مكبر للصوت ما فعله

الجاني ، وكيف قتل نفساً بريئة وسفك دمها، وتلا بعض الآيات والأوامر الصادرة من الشرع ومن حاكم البلاد .

ومن ثم انسحب من الميدان ، ولم يبق إلا سماع صوت الطلق الناري يردى القاتل ميتاً قصاصاً لما جنته يداه . .

في طرف الطوق كان يقف أمير المدينة وقائد شرطتها وفضيلة القاضي ونفر من الضباط، ووالد القتيل الذى رفع البندقية إلى كتفه وصوب فوهتها إلى ناحية قاتل ابنه . . أخيراً ها هو قاتل ابنه « صالح » أمامه سوف يقتله ويقتص لابنه شرعاً ، وفي رباطة جأش صوب فوهة البندقية وأسند خده عليها .

في اللحظة التى صرخ فيه القاتل مسترحما . . ياعم اعتقنى لوجه الله . . الرحمة . .

ولم يلتفت الشيخ لذلك وأعاد إحكام البندقية .. وكاد أن يضغط الزناد عندما اخترقت جموع المشاهدين وصف الجنود طفلة في عامها السابع واتجهت بسرعة البرق إلى القاتل ورمت بنفسها في حضنه وهى تصرخ .. أبي . . أبي . . لقد صليت ودعوت لك ربي . .

ورف طائر الأمل بين ضلوعه في قلق . . والشيخ يرخى بسلاحه وهب الجنديين القريبين من القاتل وحاولا انتزاعها من أحضانهولكنها كانت متشبثة به بكل قوتها ، فأنتزعاها بقوة وأخرجاها من الساحة .

وصرخ قائد الشرطة في الشيخ هيا أيها الشيخ وأنهى الأمر ورفع الشيخ سلاحه من جديد وأسند خده عليه ونظر إلى قاتل ابنه . .

كانت الدموع تغسل خديه وتبلل قميصه كله . . رأى الشيخ ذلك من فوهة البندقية . . عبر سلاح الموت .

بينما علا صياح الجموع . . الله أكبر . . الله أكبر وتناهى إلى أذن الشيخ صوت يقول . . أعتقه لوجه الله . . ألم تقرأ قوله عز وجل « بسم الله الرحمن الرحيم : ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل أنه كان منصوراً » .

وأصابت الشيخ دوامة من المشاهد والأفكار .. منظر الطفلة وصوت آيات القرآن . . وأصوات الجميع هاتفة الله أكبر . . الله أكبر . . ولم يشعر بنفسه إلا وهو يقذف بالسلاح جانباً ويتقدم إلى المحكوم بالقصاص . . قائلا :

– لقد أعتقتك لوجه الله عز وجل . . بعد أن مكنني منك ومن دمك . .

وينحني يمسح رأسه بيده ويطلق قيد يديه . . بينما الدموع تنهمر من عينيه فتبلل لحيته البيضاء . .

وينكب الطليق يقبل قدمي الشيخ في بكاء ونشيج . . بينما صوت الجموع يصرخ فرحاً . . مباركاً مبشراً بالجزاء الحسن . .

وعادت عربة الأسعاف البيضاء إلى المستشفى خاوية وقد خر صوتها المزعج . .

وتفرق الجمع ، وكل ذهب إلى مسعاه في الحياة . . ليس لهم حديث طوال ذلك اليوم إلا فيما حدث في ساحة ابن عباس .

كانت الشمس قد غربت وبدأ الجو يميل إلى البرودة عندما دعانا زميلنا العريس إلى داخل الدار .

وهناك شعرنا بالدفء المنبعث من أعواد الحطب في الموقد وبلهفة المتتبع الشفوق .

قلت لمحدثي :

ـ ولكنك لم تخبرني عن ما تم مع طارق وفتاته ؟

قال مبتسما سعيداً . . لتتبعى حديثه . .

ـ لقد سارت الأمور بعد ذلك على مايرام بين القبيلتين . . وها أنت اليوم تحضر عرس « طارق » زميلنا إنه ابن « فضة » وها أنت تجلس في داره وفي ضيافته .

وأسلمت ظهرى الوسايد في راحة واسترخاء .. ورحت أستعرض أحداث القصة من جديد .

وطرأ لى أن أختلس النظر من مكاني إلى الحجرة الأخرى حيث كانت « فضة » في جمع من النساء ، ورحت أتأملها ، كانت تبدو ساهمة . . تنظر إلى « طارق » في حنان وفخر ، لم تطرف عينها لحظة عنه ، وكأنما كانت تخشى أن تغيب ملامحه عن ناظريها . . ولو كان النظر يذيب الأشياء لأذابت هيكل ابنها من كثرة ما نظرت إليه .

هو مركز الضوء في حياتها ، ومصدر الإشعاعات كلها . . « طارق » انه طفل الأمس ينضج بالحيوية والشباب . . ملء السمع والبصر قامة وجمال ورجولة .

هى مقتنعة أنه مامن أنثى أنجبت أروع مما أنجبت ، وهذا لم يكن حكمها وحدها ، بل كل الجماعة ، وكل الناس كانوا معجبين يثنون على « طارق » ، ها هو يبتسم ويتحرك بحيوية ، ويتكلم .

إن حديثه عذب ، وابتسامته رائعة ، وشكله . . آه . . لا يمكن أن يكون في الدنيا بأسرها شاب أرق وأسمع وأعذب من ابنها . . هذا الذى ملأ حياتها سعادة ، منذ أن حملته في أحشائها وأرضعته من ثديها لبنا مستخلصاً من دمها .

وعادت إليها صورة أحمد . . الشاب المتوثب حيوية ورجولة . . إن طارق مثله تماماً . . لا يتهاون أبداً . . ولا يكل أبداً في خدمة أبناء قريته وجماعته .

وها هو طارق جد وثابر وتحقق حلمه ، هو اليوم مهندساً زراعياً لا يكل منذ الصباح الباكر يتفقد المزارع والمزارعين ، يرشدهم ويقدم لهم المشورة والعلم . . انه صورة من والده . .

وأشاحت بوجهها تكفكف خلسة عبرة ترقرقت بين أهدابها . . أوشكت أن تحجب عن عينيها محيا طارق .

ورفرفت زغاريد في جنبات الدار . . وعلت من الخارج أصوات الدفوف ونقع الزير ، وبرز صوت الشاعر . . فأصاخت السمع .. انه ينشد قصيدة يمدح فيها « طارق » ويذكر الجميع بأن ذلك ليس غريباً وأمه « فضة » .

وابتسمت وظلت تلك الإبتسامة عالقة على محياها كل الوقت . . وقد ملأتها السعاده حتى أترعت كأسها غبطة ومسرة . . يالذوق ابنها . . انه رائع . . عروسة باهرة الجمال عذبة الحديث طيبة القلب . . تتواثب شباباً وأنوثة ورقة . . إذا ماتبسمت خيل للناظر أن النجوم تغتسل في النهر ، وإذا ما نظرت اشرأبت الأهداب تحرس العين ، وانعكس القمر في أحداقها . . وحديثها عندليب يشدوا وأوتار تعزف . .

ودت لو أن طارقاً قربها الآن لتقبله على حسن اختياره . .وتنهدت في سعادة وفرح ، بينما نسمة فتية تقتحم النافذة وتداعب « شيلتها » وتخفى ملامحها عن ناظرى ، وقد لمحت خلف شفافيتها بريق دمعتان تنحدران على وجنتى « فضة » .

ومضى الليل . . في الرقص وتبارى الشعراء ، ونقر الدفوف ، وصوت الزغاريد يعلو ين الحين والآخر .

وعندما بدأت تباشير الصباح تهل ، وقبل أن تمتص أشعة الشمس قطرات الندى المتألقة على أوراق الشجر ، بدأ الحفل يخفت رويداً رويداً وبدأ الجمع يفترق . . بينما نام معظم المباشرين والمضيفين كيفما اتفق . . وقد انهكهم التعب . . وغادر الزملاء المكان إلى العربة لنعود إلى الطائف وكنت أستعد للحاق بهم عندما تناهى إلى سمعى الحوار التالى :

قال طارق مودعاً أمه ليدخل على عروسه :

ـ تصبحين على خير . . أرجو أن تدعين لى بالسعادة . .

قالت من خلال دموع الفرح :

ـ في هذه المناسبة يابنى . . لا أجد ما أقدمه لك أثمن من هذا المصحف . . فاقرأه يابنى وتدبره . . فانه الحارس . . ومصباح الطريق . . وأوصيك بالصلاة فهى لك رجاء . . لقد نلت ماتحب بفضل قوة إيمانك بالله . . وكان حادث القصاص لك مخرجاً . . . فاشكر الله . .

قال « طارق » وهو يقبل المصحف :

ـ خير هدية من أم مؤمنة . . ربتنى فأحسنت تربيتى ، لك عرفاني وحبي ، وانحنى يلثم يدها ، بينما كان يملأ المكان صوت آذان الفجر .

وأسرعت الحق بالزملاء وقد غمرتنى الفرحة والسعادة . . والعربة تتهاوى بنا على الطريق ، وأشعة الفجر الحانية تكسو الحقول بغلالات رقيقة شفافة . . ورائحة الزرع تسرى في موجات النسيم وتتواثب إلينا عبر الشبابيك ذائبة في موجوت النور والطبيعة الخضراء تنبض في كل شيء وتستحم وتخفق تحت بواكير أشعة الشمس، فيزدهر في قلبي الأمل والثقة في المستقبل .

عبد الله سعيد جمعان

مطبوعات نادى الطائف الأدبى

	العنوان	المؤلف
١	سوق عكاظ في التاريخ والأدب...	اعداد لجنة الآثار التاريخية بنادى الطائف الأدبي
٢	البحث عن ابتسامة	محمد المنصور الشقحاء
٣	لكل مثل قصة	مناحى ضاوى القثامي
٤	شبه الجزيرة العربية تهدى الحكمة للعالم ...	(محاضرة) حمد الزيد
٥	مسيكينة	سعد الثوعي الغامدى
٦	رحلة العمــر	على حسين الفيفى
٧	هل للشعر مكان في القرن العشرين	د. غازى القصيبي
٨	خطرات في الأدب والفلسفة	حمد الزيــد
٩	فلسفة السلام	هشام ناظر
١٠	معانــاة	محمد المنصور الشقحاء
١١	المضيفات والممرضات في الشعر العربي المعاصر	عبد الرحمن المعمر
١٢	ملف نادى الطائف الأدبي الأول	اعداد النادى
١٣	أجنحة بلا ريش	حسين سر حان
١٤	نظرات في الأدب والتاريخ والانساب	على حسن العبادي
١٥	رجل على الرصيف	عبد الله سعيد جمعان
١٦	صور من الحياة والمجتمع	على خضران القرني
١٧	ذكــريات	احمد على
١٨	خواطر في التنمية (محاضرة)	د. غازى القصيبي
١٩	حديث في الاعلام (محاضرة)	د. محمد عبده يماني
٢٠	البيوت أولا (محاضرة)	هشام ناظر
٢١	جوانب صحية في التشريع الإسلامي (محاضرة)	حمد الدعيج
٢٢	المحراب المهجور	ابراهيم الزيد
٢٣	كتاب القصة	محمد المنصور الشقحاء (كتاب دورى)
٢٤	مقالات في الأدب	أعداد النادى (كتاب دورى)

٢٥ — عذراء المنفى ... ... ابراهيم الناصر

٢٦ — نشر النور والزهر ج ١ ، ٢ ... ... محمد سعيد العامودى واحمد على

٢٧ — ملف نادى الطائف الأدبي الثاني ... ... اعداد النادى

٢٨ — معجم معالم الحجاز ج (١) ... ... عاتق بن غيث البلادي

٢٩ — في الأدب والحرب ... ... حسين سرحان

٣٠ — مذكرات الخط العربي ... ... جلال أمين صالح

٣١ — أهــازيج ... ... محمد ابراهيم جدع

٣٢ — الطائف (محاضرة) ... ... هند صالح باغفار

٣٣ — نافذة على الحائط المهدوم ... ... الأستاذ عبد القدوس الانصارى

٣٤ — حكاية حب ساذجة ... ... محمد المنصور الشقحاء

٣٥ — الرواد الثلاثة ... ... عبد الله خياط

٣٦ — من احاديث الكتب ... ... محمد سعيد العامودي

٣٧ — كتاب القصة (٢) ... ... محمد المنصور الشقحاء

٣٨ — مقالات في الأدب (٢) ... ... اعداد النادى

٣٩ — دريد بن الصمة ... ... مناحي ضاوى القثامي

٤٠ — الوان من الأدب ج (١) ... ... شعبان جبريل عبد العال

٤١ — هتاف الحياة ... ... عبد الله جبر

٤٢ — كنز الانسان ومعجم الآداب ... ... حمد الحقيل

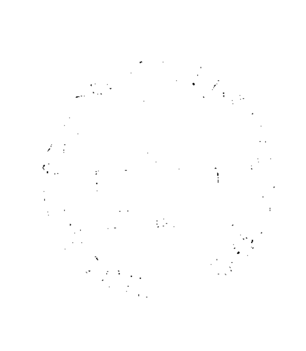
٤٣ — الصمت والجدران ... ... سباعي احمد عثمان

٤٤ — معجزات القرآن الكريم البيانية (محاضرة) ... د. حسن محمد باجودة

للمؤلف

١ ـ بنت البادية ... ... مجموعة قصص ١٣٨٦ هـ

٢ ـ رجل على الرصيف ... ... مجموعة قصص ١٣٩٨ هـ




شركة مكة للطباعة والنشر
MECCA PRINTING & PUBLISHING CO.